السعادة الزوجية

كيف تسعد زوجتك؟
كيف تسعدين زوجك؟
من وجهة نظر إيمانية

ماجد سليمان دودين





السعادة الزوجية

كيف تسعد زوجتك
كيف تسعدين زوجك
من وجهة نظر إيمانية

اعداد
ماجد سليمان دودين



دار الإسراء للنشر والتوزيع
ت/٨٤٣٥٣٢

لدارالإسراء للنشر والتوزيع
١٤١٣هـ - ١٩٩٤م
القاهرة ت/٦٧٦٠١٣
عمان - الأردن - ت/٨٤٣٥٣٢ - ص.ب. ٦٧٩٧

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية (١٩٩٤/٩/٩٠٣)

رقم التصنيف : ٢١٦,٥٣

المؤلف ومن هو في حكمه : ماجد سليمان دوديـن

عنوان المصنف : الى الطريق : السعادة الزوجية

رؤوس الموضوعات : ١- الفقه الاسلامي

٢- العلاقات الأسرية

رقم الايداع : (١٩٩٤/٩/٩٠٣)

الملاحظات : عمان : دار الاسراء للنشر

☆ تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

هذا الكتاب

مجموعةٌ منتقاةٌ مِنْ المقالاتِ كتبها أهل الاختصاص من علماء الشريعة والفقه والإجتماع والنفس والإنسان تبين الطريق إلى السعادة الزوجية من وجهة نظر إيمانية بحيث يستطيع الرجل وهو ربان سفينة الأسرة أن يحقق السعادة مع شريكة حياته ملكة مملكة الزوجية .

لقد اخترت هذه المقالات بعناية لأنها تلامس وجدان الإنسان التقي النقي ولا يسعني إلّا أن أشكر هؤلاء العلماء الأفاضل الأجلاء الذين أفدت من أبحاثهم ومقالاتهم .

ماجد دودين

هذا الكتاب

إن من عظمة هذا الدين وشموليته أن أرشد العباد لأسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة ليأخذوا بها وأسباب شقائهم ليبتعدوا عنها فجاء ذلك واضحاً في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً** ﴾ .. .

فالمسلم الحق يعلم أن هذا الدين جاء منهجاً للحياة فهو دينٌ شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ويعلم أيضاً أنه مطالبٌ أن يتبع هدى الحق تبارك وتعالى في كل شئون حياته ومنها الزواج عملاً بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكى ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له** ﴾ ثم يبين اللهُ تعالى أن ذلك ليس إختياراً ولكنه أمرٌ من الله فكانت بقية الآية ... ﴿ **وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ .

من هنا تبدأ سعادة العبد في دنياه وآخرته .

ولكن .. أعداء هذا الدين أرادوا للمسلمين أن يبتعدوا عن هذا الفهم الشامل للإسلام فزينوا للمرأة أن سعادتها في التحلل من الفضيلة وإظهار مفاتنها للرجال وإتباع خطوط الموضة وإقامة العلاقات مع الرجال ثم الزواج من الشاب المدلل المتحلل من كل معاني الإسلام فكان بذلك الشقاء لأنهم أبعدوهم عن منهج الله جل وعلا ... في حين أن الإسلام قد طهر المجتمع من هذه الرذائل فجعل سعادة المرأة في الإستجابة لأمر ربها وفي إرتداء حجابها الشرعي ثم زواجها على منهج الإسلام وهدى القرآن من صاحب الخلق والدين لبناء الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم ... فإذا تحقق هذا النموذج الإسلامي للزواج كانت السعادة الزوجية الحقيقية .

وهذا الكتاب يبين مقومات تلك السعادة الزوجية والمعنى الحقيقي للسعادة وصولا إلى حياة زوجية سعيدة على المنهج الرباني .

والله الموفق
الناشر

السعادة الزوجية

تمهيد

قبل أحد عشر عاماً وزّعت استبياناً في الجامعة على عيّنةٍ عشوائيةٍ من الطلاب والطالبات وقد تضمّن الإستبيان سؤالاً واحداً من جملة واحدة هي « ما هو تعريفكِ للسعادة ؟ » وجمعت الأوراق أتفحصها وأمحّصها وأحلل المعلومات والتعاريف الواردة فيها .. وقد كانت دهشتي عظيمة .. جدّ عظيمة حين لم أجد تعريفاً واحداً من التعاريف الكثيرة يشير من قريب أو بعيد إلى ارتباط السعادة بالإيمان فقد كانت كل التعاريف مادية صرفة « تُعرّف السعادة على أنها امتلاك للمادياتِ من أموال وزينةٍ وزخارفٍ ومتاعٍ ورياشٍ وأثاث .. حتى أنّ إحدى الفتيات كتبت على ورقة الإستبيان « السعادة كوخٌ صغير أمامه سيارة فارهة أطول منه — من الكوخ — » وحاولت الغوص في هذا المفهوم للسعادة فوجدتُ أنّ المادة لابد وأن تطغى على الروح مادامت السيارة لابد وأن تكون أطول من الكوخ .. على اعتبار أنّ الكوخ يرمز إلى الرومانسية والشفافية والروحانيّة والحس المرهف .. أما السيارة فترمز إلى المادة .. وبهذا التعريف العقيم للسعادة لن يحدث التوازن ولا الإتزان ولن تتحقق الوسطية ولا الاعتدال .

لقد كان حُلمي أن أحصل على تعريف إيماني للسعادة يقول :

السعادة الحقة هي حالة صُلح الإنسان مع خالقه ثم مع نفسه والناس من حوله ... فإذا كان الإنسان في حالة صلح مع خالِقه لابدّ وأن يكون في حالة صلح مع نفسه وبالتالي مع الناس وكل الموجودات من حوله ... أما إذا كان الإنسان في حالة حرب ،مع خالقه ورازقه والمنعم عليه بِنعَمِ الإيجاد والإمْداد والهداية والسداد فإنّه والحالة هذه سيكون في حَالة حربٍ مع نفسه وبالتالي مع الناس وكل الكائنات والموجودات من حوله ودليل ذلك قول الله تعالى :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه]

وهذا ينسجم تمام الإنسجام مع نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان فشرائع الله وأحكامه إنّما تنزّلت من عند الله سبحانه هدىً ورحمةً للناس ، ودواء وشفاءً لما يعْرِض لهم من آفات تطغى على فطرتهم ، وتحجب وجه الحق عنهم .

إنّ الدين الذي شرعه الله لعباده إنّما هو لخير الإنسان ، وأمنه ، وسلامته ، وسعادته ، في ذات نفسه ، وفي المجتمع الذي يعيش فيه ... فإذا لم يجد الإنسان المسلم بين يديه ، وفي قلبه ، كل هذه الثمرات الطيّبة التي يقطفها المؤمنون من مغارس الدين ، فلْيتّهم نفسه ، وَلْيَعْلَم عن يقين أنّ هناك خللاً في صلته بالدين وعلاقته بالله رب العالمين .

والحديث عن هذه السعادة بمفهومها العام وإطارها الشامل تناولناه في كتابنا « مفاتيح السعاده » ... ولكنني في هذا الكتاب سأتناول موضوع « السعادة لزوجية والطريق إليها » وحين ترفرف رايات السعادة في القلوب والنفوس الارواح في ظل حياة زوجية هانئة رائعه فإنّ رايات الخير والاستقرار والسكن

والمودة والرحمة والتراحم سترفرف في المجتمعات الإسلامية الإيمانيه ومن الخير تحقق النصر على الأعداء ... وهذا النصر لا يتأتى إلّا إذا حققنا النصر على أنفسنا بإقامة المجتمع الإيماني إنطلاقاً من بناء الأسرة الإسلامية وحين نقول : « الأسرة الإسلامية » فإننا نعني « الحياة السوية » بتحقق « المعادلة المنطقية » التي أطرافها : رجل مؤمن سوي + امرأة مؤمنة تقية نقيّة = حياه إيمانية سوية سعيدة هانئه . فالحياة في المنظور الإسلامي رجلٌ وامرأةٌ وما عداهُما خُلِقَ من أجلهما ... إننا لم نُخلق لنأكل ونشرب فحسب ولكنّ كل الأشياء المادية خُلِقَت لنا ونحن خُلقنا لهدفٍ أسمى يتجاوز الماديات وينطلق إلى عالم الروح كي تكون الاطار والخيط العام الذي يقودنا إلى الحقيقة الخالدة التي تكون الحياة بدونها عبثاً وجنوناً وتعاسة .

وما سر الضنك والقلق والتخبط الذي نحياه على كل صعيد ومنها صعيد الأسره وفي كل مناحي الحياة ومنها الناحية الاجتماعية إلّا أننا نُصِر على أن نتعلم كل شيء حول الهدف الذي خلقنا الله لأجله وننسى أو نتناسى كل شيء حول الهدف الذي خلقنا الله لأجله وهو العبودية في إطارها الشامل المتكامل .

وسأتناول موضوع « السعادة الزوجية والطريق إليها » بالحديث عن مجموعة من القضايا التي إنْ فقهناها ــ رجالاً ونساء ــ تحققت السعادة التي نحلم بها جميعاً وأبحرت قوارب حياتنا إلى شواطىء النجاة والسلامة وبر الأمان والسعادة .

ماجد سليمان دودين

حكمة تكوين الأسرة في الإسلام

تنطلق نظرة الإسلام في بناء الأسرة المسلمة من قاعدة أساسية تشكل حكمة متكاملة ذات مستويات متعدده .

- مستوى كونها احتمالاً لم يتحقق بعد .
- ومستوى كونها فعلاً يتحقق الآن .
- ومستوى كونها فعلاً قد تحقق .
- ومستوى كونها فعلاً استقر على قاعدة صلبة ، أو تعرّض لرياح القلق والاهتزاز .

من المنظور الأول : (كون الأسرة احتمالاً لم يتحقق بعد) ... يحث الإسلام على تخيّر نوعيّة المرأة التي ستصير زوجة للرجل وأماً للأبناء لتخريج جيل من الشبيبة المسلمة ونموذجاً لسلوكيات المرأة المسلمة .

... وفي هذا الصدد يوجّه الإسلام إلى ضرورة التريّث والاختيار : حتى يقوم بناء الأسرة على منطق الحبّ وليس على منطق الصفقة ، ولعلّ في حديث النبي ﷺ ما يؤكد هذا ... « ألا أخبركم بخير ما يكتنز المرء له : المرأة الصالحة : إذا نظر إليها سرّته ؛ وإذا غاب عنها حفظته ؛ وإذا أمرها أطاعته » ... « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » ... « تزوّجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم » ... « تُنكح المرأة لأربع : لجمالها ومالها وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » ... « أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة ، قلب شاكر ولسان ذاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه حوباً في نفسها وماله » .

هذه التوجيهات الراشدة والحاسمة معاً ، تفرض بالضرورة على المسلم ان يصحح من منظوره في اختيار شريكة الحياة ، وتضعه أمام مرحلة الاختيار في منطقة الوعي بأنّ المال عرض ، وبأن الجمال عارية ، وبأن الحسب مقياس ترابّي ، وبأن الدين وحده هو الأساس الحقيقي الذي يمكن أن تقاس به درجة القبول والرفض : لأنّه هو الأساس الحقيقي الذي يعصم المرأة من أن تصبح شريكة بالمال في حياة تستهدف السكن والحب ودفء العلاقات ، أو شريكة بالإنتماء العائلي في حياة عقيدية يمكن أن يضحّي المرء في سبيلها بكل الانتماءات إذا تعارضت مع سمته العقائدي أو إيمانه المصيري ، ويبقى الدين وحده جامعاً لا يتعرض للتفتت ، وجامعة لا تتعرض للإنفكاك .

• ومن المنظور الثاني (كون الأسرة فعلاً يتحقق لحظة القبول) يحث الإسلام على التعرف الكامل من جانب كلٍ من الشريكين على الآخر ، لأنَّ ذلك أدعى إلى تمتين أواصر الحب ، وأخلق ببناء الأسرة المسلمة على قاعدة الاستبصار وليس على عشوائية الربط بين النقيضين ... إن من حق الرجل والمرأة على السواء أن يعرف كلاهما الآخر ، وأن يرى كلاهما الآخر ، وأن يجلس كلاهما إلى الآخر دون خلوة وفي حياطة الأسرة ورعاية المناخ العائلي ... ومن حق الرجل والمرأة على السواء كذلك أن يرضى كلاهما بالآخر ، وأن يوافق كلاهما على الآخر ، حتى تبدأ الرحلة الحياتية بكلمة الحب لتنتهي إلى حب دائم يظلل مسافات الحياة .

وقد أقر النبي ﷺ هذه الأسس في حادثة الفتاة المسلمة التي وفدت على عائشة رضي الله عنها ، تشكو إليها أنَّ أباها زوّجها من ابن أخيه ، ليرفع بها خسيسته ... وحين يدخل الرسول ﷺ يبعث بمن يستقدم له أباها ، ويلومه على ما فعل ، ويترك للفتاة حرية القبول أو الرفض ... فتقول الفتاة ... (يا رسول الله ، قد أجزتُ ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أُعْلِمَ النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء) ... ليس ذلك فحسب ، ولكنَّ الإسلام أعطى كلاً من الرجل والمرأة على السواء كذلك ، حق أن تتعادل كّفتاهما في هذا اللقاء ، وهو

ما عبّر عنه المصطلح الإسلامي بالكفاء المادية ، بالكفاءة المادية، والكفاءة الفكرية ، فإن ذلك أعون بالضرورة على خلق المناخ الصالح لتبادل الرأي والمشورة ، وتبادل البذل والعطاء ، وليس في هذه النظرة الإسلامية ما يَشي بحسٍ طبقي كما يزعم البعض . ولكنّها نظرة موضوعية تضع كل شيء في نصابه الطبيعي ، حتى لا يفقد أي من الطرفين طبيعة الأرض المشتركة التي يقف فيها إلى جوار صاحبه يبادله العطف والفكر والكدح وتوجيه أمواج الحركة الحياتية في اتجاه شاطيء القرار ... على أن هذه (الكفاءه) محكومة بنظرة كل من الطرفين إلى الآخر وسكونه إليه ، ولو كان من نوعيّتي تركيب اجتماعي متفاوت في موازين العرف والمال والاجتماع .

• ومن المنظور الثالث : (كون الأُسرة فعلاً قد تحقق بالفعل) يحث الإسلام على التزام نوعيات محددة من الحقوق والواجبات ، فللزوج حقوق على زوجته ، وعليه واجبات حيالها ، وللزوجة حقوق على زوجها ، وعليها واجبات حياله ، وللوالدين حقوق على أولادهما وعليهما واجبات حيال هؤلاء الأبناء ، وللأبناء حقوق على الوالدين وعليهم واجبات حيال هذين الوالدين ... ولحكمة مّا لم يترك الإسلام هذه الحقوق وهذه الواجبات سدى ، استناداً إلى وشائج الدم والحب التي تربط بين أولئك وهؤلاء ، ولكنّه حدد الحقوق والواجبات ، وجسد نوعية العلاقات بين الجميع في ظل الوفاء بهذه الأطر ، وفي ظل نقضها جميعا ... وإنْ كان الإسلام قد حرص على شيءٍ قبل هذه العلاقات ، وبعد هذه العلاقات ، فهو حرصه على بر الوالدين ، حتى في لحظات الإنشقاق العقائدي ... صحيح أنّه حَذَّرَ الأبناء من متابعة الآباء في قضية الشرك بالله ، والكفر بواهب الحياة ، ولكنّه حذّرهم كذلك من التخلي عن أب ضلّ أو أمٍ حادَتْ ، ويكفي أن لا نطيعهما في قضية الشرك ، ولنصاحبهما بعد ذلك في الدنيا معروفاً ... إنّ الحقوق والواجبات تبدأ — في الوجهة الإسلامية — من حسن المعاشرة ، إلى كفالة الحق المادي ، والحق المعنوي ، إلى تبادل الرأي وطرح الاستبداد ، إلى تحديد مناطق النفوذ في البيت ، إلى تأصيل دعائم الصون

والاحترام في علاقة كلّ بكلّ ، وبهذا يتحول البيت المسلم إلى جنة السعادة من جهة وإلى مملكة محروسة التخوم من جهة أخرى .

* ومن المنظور الرابع : (كون الأسرة فعلاًتحققت‌ثم تعرّض بعد ذلك للقلق أو بدايةالاهتزاز) يحث الإسلام ــ مع بداية الانشقاق في الأسرة على التعقل وتوطين النفس على مصابرة الخلافات ... وقد مرّر علاقة الرجل بالمرأة ــ مع بداية الانشقاق في جدار الحب بينهما ــ في مراحل الوعظ الرفيق ، والهجر اللاذع ، والزجر المستأني . فإذا لم تفلح هذه العلاجات الأولية لجأ الطرفان إلى التحكيم فيما بينهما ، حكم من أهله وحكم من أهلها ، وشرط في الحكَمَيْن أن يكونا على نيّة الإصلاح والبناء ، وليس على نيّة الخراب والدمار (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) فإرادة الإصلاح في الحكمين أولية لأزمة بينهما ... فإذا لم تفلح هذه العلاجات كذلك ، فإن الإسلام يُعطي مساحة زمنية لمراجعة النفس (بعد الطلاق) . وبكلمة واحدة ، أو بملامسة مسترجعة ، تعود المياه إلى التدفق ، وتعود إلى الشفاه اليابسة بسمة الحب والرضى . وإلّا فإنّ بتر الداء في بواكيره أجدى من تركه ليراكم أعطابه في كل اتجاه .

وهكذا ... يلوح ... بلا إدّعاء ... أن نظرية الإسلام في بناء الأسرة السعيده ، تنطلق من قاعدة أساسية ، تشكل حكمة متكاملة ذات مستويات متعددة .

فهو ينظر إليها من مستوى كونها احتمالاً لم يتحقق بعد فيوصي على ضرورة الاختيار والانتقاء .

وهو ينظر إليها من مستوى كونها فعلاً قد تحقق الآن على التعرف والرؤية والرضى .

وهو ينظر إليها من متسوى كونها فعلاً قد تحققت بالفعل ، فيؤكد على تحديد العلاقة القائمة في رحاب الحق والواجب .

وهو ينظر إليها من مستوى كونها فعلاً تحققت ثم تعرض للاهتزاز ، فيأمر

بتأجيل كلمة الفصل ، ومراجعة الذات حتى ينقشع غيم الكراهة الطارئة ، ويومض في الأعماق فجر الحب والتواصل من جديد .

• إن هذه النظرية الإسلامية لا تنهض على جانب عاطفي مبتوت الصلة بتحكيم العقل في الأشياء والعلاقات ... وهي لا تنهض كذلك على جانب عقلي مبتور الوشائج بتنمية عواطف الحب والرحمة ... ولكنها تنهض على فلسفة يتعانق فيها الجانب العقلي والجانب العاطفي ، حتى يستطيع أن تحتفظ لنفسها بقيمة التوازن الراشد ، وتظل على الدوام عاملة في مجال التحقق الإنساني بكل ما يشتمل عليه هذا التحقق الإنساني من عواطف الخير وتحكيم العقل في كل ذلك في جو من الإنسجام الطبيعي يتواتر على حركة البقاء في إنسياب فطري رائع .

ونكون بفهمنا لهذه القضايا قد أرسينا الأساس المتين والعقد المحكم والعروة الوُثقى في الطريق إلى السعادة الزوجيّة . ونستطيع بذلك أن نبحر معاً في رحلة تفصيلية لمناقشة كل المعاني والمعارف والمفاتيح التي بها ومن خلالها وبسببها نسير بخطىً واثقة في طريق السعادة الزوجية المنشودة ... وسأحاول جاهداً أن أرسم « خارطة السعادة الزوجية » بالاستعانة بأبحاث علماء النفس والاجتماع والتربية والإنسان وبالإفادة من خبرات وتجارب هؤلاء جميعاً بهدف الوصول إلى الهدف المنشود والغاية المقصودة من خلال الصورة الصادقة والنظرة الصائبة والفكرة الرائعة وأنا على يقين وكلّي أمل وتفاؤل ــ بعون الله ــ من أننا جميعاً سنشعر بعمق المتعة ونحن نخطو ونسير ونبحر ونطير في طريق السعادة الزوجية ... السعادة الرمز والسعادة الأمل ... والسعادة الحلم ... السعادة الرحمة والسعادة المودة والسعادة السكن ... السعادة النور ... والسعادة الطهر ... والسعادة الخير ...

السعـــادة التـــي تقودنـــا   إلى سعادة الحياة وحياة السعادة
السعـــادة التـــي توصلنـــا   إلى عمل الخير وخير العمل
السعـــادة التـــي تهدينـــا   إلى نور الحياة وحياة النور

* * *

الإسلام والأسره

لا رَيب أن هي الخلية الأولى ، والركيزة الهامة في تكوين المجتمع الإنساني والعماد الراسخ للعمران البشري ... وما أشدّ اهتمام الإسلام بتكوينها ، وترسيخ قواعدها ، والعناية بتنظيمها ورعايتها ، فقد عَظَّمَ أمرالأنساب ، وأعلى قدرها ، فأمر بالنكاح وحرم السفاح ، وبالغ في تقبيحه ردعاً وزجراً وحثّ على الزواج استحباباً وأمرا ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان]

ولا غرو ولا عجب ، فإنّ الزواج هو العاصم للدين والخاذل للشياطين ، والحصن الحصين للمؤمنين ، وسبب لتكثير المسلمين ، يباهي به سيد المرسلين .

ولذلك رغب الإسلام في الزواج كثيراً ، وحض عليه في القرآن الكريم والسنّة النبوية حضا عظيماً ، فقال تعالى :

﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا
تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ﴾ [النساء]

وقال عزّ وجل :

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ
وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ ﴾ [النور ٣٢]

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يتزوجوا من النساء الطيبات الحلائل ، وأن يسعوا لتزويج من لا زوج له من النساء والرجال فقال تعالى :

﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة ٢٣٢]

وقال عزّ من قائل :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد ٣٨]

وقال تعالى على لسان عباد الرحمٰن :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾

[الفرقان ٧٤]

وأعظم بترغيب الرسول ﷺ في النكاح حيث يقول : « النكاح سُنّتي ، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي » ... وحين يقول : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً ، فليتزوّج الحرائر » ...

ولنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يوضّح أهداف الزواج وحكمته ، مخاطباً شباب أمته فيقول : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم فإنه له وجاء » رواه البخاري ومسلم ...

وقال ﷺ : « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة » وقال : « من كان ذا طَوْل فليتزوج » [(١)] .

---

(١) طَوْل : أي قدرة على تكاليف الزواج .

وقال ﷺ زاجراً ومهدداً المعرضين عن الزواج مَخافة العيلة (الفقر) « فليس منا » أي ليس مستناً بسنتنا ولا مهتدياً بهدينا .

وأوضح ﷺ أنَّ العزوبة مبعث الشرور ، ومنبع الفجور ، والسبيل إلى الشيطان ، فقال : « شراركم عزابكم ، وأراذل موتاكم عذابكم » ...

أجل ... نهى الإسلام عن العزوبة والتبتل، لأنهما ينأيان بالمسلم عن السبيل الأسَدّ ، والطريق الأقوم ، وبهما يتوقف التكاثر والتناسل ، وتخرب الدنيا ، وينقطع العمران ، أما الزواج ، فبه يتم التناسل ، وتعمر الدنيا ، وتنمو الأمة وتتكاثر ، وتقوى وتعتز وتسعد وتتناصر .

وبيّن الرسول ﷺ أنّ بالزواج يستكمل الإنسان دينه وتقواه فقال : « من تزوّج فقد عصم نصف دينه ، فليتق الله في النصف الآخر » ... كما يقول « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله ، خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسه وماله » ... ففي هذا الحديث الشريف يقرن الرسول ﷺ الزواج الصالح بالتقوى ، ويجعله تالياً لها في مرتبة الشرف .

* * *

وحسن العقبى .

ومن الآثار التي جاءت توضح فضل الزواج وتحض عليه قول ابن عباس رضي الله عنهما : « لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج » وقول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — « لا يمنع من النكاح إلّا عجز أو فجور » وقول ابن مسعود — رضي الله عنه — : « لو لم يبق من عمري إلّا عشرة أيام لأحببت أن أتزوّج لِكَيْلَا ألقى الله عزباً » .

وما أُثر عن معاذ بن جبل — رضي الله عنه — فقد ماتت له امرأتان في

الطاعون وكان هو أيضاً مطعوناً فقال : « زوّجوني فإني أكره أن ألقى الله عزبا » .

ونظرة فاحصة متأنية متأملة إلى قوله ﷺ : « من لان موسرا لأن ينكح ، ثم لم ينكح ، فليس مني » [1] تعطينا ترهيباً وتشديداً واعلاناً بقطع الأواصر التي تربط المؤمن وتصله بالنبي ﷺ وتجعل التارك للنكاح مع القدرة عليه بمنأى ومعزل عن الجناب النبوي الشريف ، ولا بدع في ذلك فإنّ من أعرض عن الزواج مع الصحة واليسر والفراغ والشباب ، والغرائز الجامحة كانت نفسه ميداناً تموج فيه خواطر الشر والانحراف ، ومسرحاً تجول فيه جنود الشيطان والفساد والاستهتار .

ونستنتج من كل ما سلف أنّ الزواج من أكبر آلاء الله على بني الإنسان ، فالزواج داعية التواد والتراحم ، ومجلبة الألفة والوفاق ، فيه تسكن الأنفس وتستروح وتستريح وتأنس من مشاق الحياة ولغوبها ونصبها ومتاعبها وعنائها ، وفيه جمامٌ ــ راحةٌ ــ للإنسان تُقوّيه على ممارسة أعماله وعلى عبادة ربه ، ومتابعة أعماله وأحواله ، وصدق الله العظيم إذ يقول موضحاً آيات قدرته ونعمته :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم ٢١]

وفي الزواج مجاهدة النفس ورياضة لها برعاية الأهل والأولاد والقيم بحقوقهم واحتمال التبعات في سبيل تربيتهم وتثقيفهم ، ولذلك كان الساعي في اكتساب الرزق له ولأهله ولأسرته كالحاج والمجاهد في سبيل الله « طوبى لمن بات حاجاً وأصبح غازياً ، رجل مستور ذو عيال ، ومتعفف قانع باليسير من الدنيا يدخل

(١) رواه الطبراني .

عليهم ضاحكاً ، فوالذي نفسي بيده ، انهم هم الحاجون الغازون في سبيل الله » .

وقد قيل فضل المتأهل « المتزوج » على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب » ... وفي إطار الزواج تتكسر شهوة الإنسان العارمة ويتم تدبير المنزل ويعصم الدين ، ويقوى الإيمان ، وبه يتوصل إلى الولد الذي يعتبر أهم ثمرات الزواج ، وأعظم القربات إلى الله ، إذ هو يوافق محبة الله ومرضاته لأن فيه ابقاء الجنس الإنساني ، وفي طلب الولد محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به المباهاة والمفاخرة يوم القيامة ، واستمع معي إلى قوله ﷺ : « خَيْرُ نسائكم الولود الودود » وبالولود يكون التبرك بدعاء الولد الصالح لأبيه بعد موت الوالد كما قال ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .



أسرة بلا مشكلات

عندما خرجت المرأة للعمل ... كان لهذه الطفرة مضاعفاتها . والتى منها : نقل دورها تحت سقف البيت ... إلى ساحة المجتمع يتصور علاقاتها في البيت مجرد مشاركة رتيبةٍ خاليةٍ من عواطف المودة ... إلّا قليلا .

فالمفروض أن تكون في بيتها : زوجة وفيَّة ... رقيقة الطبع ... طيبة الكلمة . انسانية الاتجاه . تستوعب قلبها الحاني آلام الصغار . وتستقبل بحكمتها هموم الكبار ... لتنحسر بين يديها ... واضعة نفسها كزاوية الجدار ... بها يكون القرار .

بينما تنحسر علاقاتها الاجتماعية في أضيق الحدود ... حفاظاً على كرامتها ... لكنها ــ تحت وطأة العمل واتصالها بالرجال ــ لم تدّخر لبيتها إلّا نخالة العواطف تبذلها ضائقاً بها صدرها ... وبينما يتضرر الصغار جوعاً إلى عواطفها النبيلة ... وبينما يتحرق الزوج شوقاً إلى دفء المودة إلى جانبها ... إذا بها تبخل عن نفسها جاعلة النصيب الأوفى من حنانها وعطفها واهتمامها للزملاء في العمل !! أو تكاد .

ومازلت أذكر هذا الصديق الذي جاء يطلب مساعدتي في نقل زوجته العاملة معه في العمل ... وفي نفس الحجرة :

إنّ جمرة الغيرة لتتقد بين جنبيه كلما رأى عيناً تُصوب إليها . أو جملة تنصب عليها . ويحس بالهوان كُلَما شاهدها تُستدعى بالأمر ــ! ــ للمثول بين يدي رجل غيره ... هو رئيسها ورئيسه ؟! إنها تُسرع إليه حريصة على ولائها له حرصاً يجعل أملها في الترقيةِ قائماً ... ثم هو يراها ... ويسمعها في المكتب ...

فإذا هي في أبهى حُللها وإذا الكلمات المتبادلة بينها وبين زملائها منقاة مختارة ! وأين هذا من مشهدها في البيت ... متبذلة ... آمرة ناهية ؟!

ونتسائل هنا :

هل يُعَوِّض الراتب المضروب في اثنين ما يفقد هذا الفتى من خلاياه التي تحترق ؟

والجواب عند الأخوة القراء . فلا حاجة بنا إلى ذكره . لكنّ حاجتنا الملحة هي البحث عن مصدر السعادة الأسرية فراراً من حياة تطوّقها المشكلات ... لعلنا نأخذ سمتنا من جديد إلى أسرة تتحمل فيها الزوجة مسئوليتها كأنثى . وأسوتنا الحسنة هنا هو رسول الله ﷺ والذي نقف الآن أمام صورة من بيته الكريم تبصرة وذكرى لمن أراد أن يأخذ إلى السعادة سبيلاً — جاء في حلية الأولياء : « قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يخصف نعله . وكنت أغزل . فنظرتُ إليه . فإذا جبينه يعرق وعرقه يتولد منه نور . قالت : فَبُهِتُّ . قال : ما لكِ بُهِتِّ . فذكرت له النور الذى يتولد من عَرَقه . ثم قالت : لو رآكَ (أبو كبير الهذلي) لعلم أنّكَ أحقُّ بشعره » .

قال : « وماذا يقول ؟ »

قلتُ : إنه يقول :

وإذا نظرتُ إلى إسِرَّةِ وجهِهِ بَرَقَتْ كبرقِ العارض المتهلِّلِ

قالت عائشة : فوضع الرسول ما كان في يده . وقام إليَّ فقبل ما بين عيني . ثم قال : « جزاك الله يا عائشة خيراً . ما سُرِرْتِ مني كسروري منكِ » .

ماذا في هذا المشهد من معانٍ جعلت من هذه الأسرة أسعد أسرة على الإطلاق ... وإن لم تملك أجهزة حديثة ... وخلا البيت من اللحم ... والفاكهة ... واللبن ... ستين يوماً ؟!

إن أعظم رجل على الإطلاق ... يرقع ثوبه ... ويخصف نعله ويقمُّ بيته ... وبيده ! إنه إذا لا يملك حذاءً جديداً لامعاً . ولا تجد الزوجة في صدرها حرجاً

من أن تنقل صورة زوجها بأمانة ... شاعرةً أنها تقدم للأجيال نفساً كبيرة لا تهمها الرياش بقدر ما يهمها إسعاد أمتها . وهو حجة على شباب مسلمي اليوم ... قد يكون السجن أحب إليه من رؤيته يخصف نعله أو يرقع ثوبه !

وإلى جانب الزوج ... زوجته العاملة : تدير بأناملها مغزلها ... تصنع ستائر النافذه ... وفرش السرير ، وبساط الأرض ... ومن نسيج محلي... غير مستورد ... أغناها عن كل مجلوب من الستائر عبر الحدود ... فأغنى الأسرة في نفس الوقت عن التبعية لغيرها ... اكتفاء بصناعتها الوطنية .

وكلا الزوجين يمارس عمله : اللائق ... المناسب : الزوج القوي : ينجز عملاً يستدعي بذل مجهود أكبر ... تفصَّد به جبينه عرقاً ... والزوجة في مهنة الغزل الميسرة ... الموائمة لطبيعتها ... والجميل هنا : أن العمل يتم تحت سقف البيت ... وما أسعد الزوج بامرأته في صحبته : ولاؤها له ... ونظرتها إليه ... وحديثها معه . وهو أشد سعادة عندما تعينه على عمله بالذهن اللماح . والكلمة الرقيقة الموحية ... والذوق الأدبي الذي يفيض بعيون الحكمة ... التي تجعل البيت واحة ظليلة جميلة ... وما أهون مشقة العمل في مثل هذا اللقاء الودود ... ثم ما أسعد الزوجة بزوجها إلى جانبها ... يملأ عليها الدار ... ويستجيب لمشاعرها الرقيقة بقلبه هي من حيث دلالتها أغلى من كل ما في الحياة ... ولو أنه عاد إليها من الخارج بأسورةٍ من ذهب ... أو جاء بكل هدايا السوق ما بلغ معشار هذه اللحظة المباركة !

وماذا تُساوي أغلى الهدايا إذا بقيَ البال مشغولاً ... والنفس موزعةٌ بين الولاء للعمل والولاء للبيت ... بل ماذا تُساوى الدنيا والغيرة القاتلة تهجم على النفوس فلا تتيح لها أن تتذوّق للسعادة طعما ؟

أجل ... لقد جُمع الزمان فكان هذه اللحظة المباركة بين الرسول ﷺ وزوجته عائشة رضي الله عنها ... وما أكثر الساكنين القصور ... الراغبين في لحظة بهيجة كهذه . والتي لو جُمع العمر كله . مكانها ... لكفى ! ولو أنهم استطاعوا شرائها لفعلوا ... وباعوا في سبيلها كل ما يملكون ... وما يسكنون .

إنّ الزواج عشرة دائمة ... ولا تدوم العشرة إلّا بالثقة ... ولا تدوم الثقة إلّا باغلاق كل منافذ الفتنة ... والغيرة القاتلة ...

وإن الثقة لدائمة ما توفر للمرأة عملها ... المناسب ... وعملها الذي تطيقه ... وذلك ما توفره للزوجة هنا ... فكان هذا الحب ... وكانت هذه الثقة : يقول العقاد هنا : « وهي على الجملة حياة زوجية سعيدة . نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة في طول أيامها . ثم منزلة الشريكة المعينة في عبء التبليغ والرسالة .

وبلغت من الثقة بها في هذه المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة . فحفظت من تعليم النبي ما لم يحفظه أحد . وحفظ عندها النبي أغلى الودائع من بعده : صحف الكتاب . وسنته المشروعة لتابعيه » .

وإنها ترينا النبي في بيته . فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية . ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته كما يكون الرجال بين النساء . على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ . فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل سمة من سماتها » .

إن حرية المرأة تبتلعها اليوم ، بل إنها لتقتلها وتقتل معها زوجها وأولادها ... وهم أحياء يرزقون ! وحتى حين يكون جمال ... ولا تكون ثقه ... فإن الجمال سوف يذهب يوماً ... ولا يعود ... ذلك بأن الجمال رأس مال يوضع في مصرف غير أمين . وغير حريز ، ولابد من الإفلاس عند الشيخوخة . أما الإيمان بجلاله ... والعمل بجماله ... أما الثقة المتبادلة بين الزوجين فهي الرصيد ... وهي الذكرى : رصيد لا يفنى وذكرى لا تموت .

* * *

الزوجة الصالحة

في العديد من الأحاديث الجامعة نجد أن الرسول ﷺ يُشبه المرأة الصالحة بكنز ثمين من كنوز الدنيا ، بل يجعلها خير متاع الدنيا لزوجها ، حيث تجعل حياته دنيا سعيدة هنيئة لا منغصات فيها ، ولا غرو في ذلك فالخير لا ينتج عنه إلّا الخير .

• روى الترمذي عن ثوبان قال : لما نزلت : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله ... ﴾ كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه : أنزل في الذهب ما أُنزل ... لو علمنا أي المال خير فنتخذه ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه » قال الترمذي حديث حسن .

وفي رواية أخرى قال النبي ﷺ لعمر : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء :المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » رواه أبو داود والحاكم .

• وفي حديث آخر للرسول ﷺ قال : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » رواه مسلم .

• ثم عاد فأكد في حديث آخر منبع ذلك الصلاح بقوله عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فأظفر بذات الدين تربت يداك » متفق عليه .

إذن فأمر الصلاح في الزوجة ، في ضوء الإرشادات النبوية الحكيمة ، لا ينبع

من صفات مادية من جمال أو مال أو حسب ونسب ، بل يشعّ من جوهرها وذاتها الأصيلة ، التي رسَخَتْ فيها العقيلة وتربعت في أركانها ، فجعلتها تُحب الله وتخافه ، وتؤمن إيماناً راسخاً بما قضى لها الله من حظ في هذه الحياة الدنيا ، فتتزن أعمالها بميزان اليوم الآخر ، وتربط قلبها بالله ، مُراقبة أعمالها صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها .

وإن زوجة من هذا النوع تعرف كيف تُحسن معاشرة زوجها ، ووفق منهج الشريعة الإسلامية ، بما ترشد إليه من أخلاق إسلامية عظيمة ، فيها سعادة الفرد والمجتمع .

وقد حوى القرآن الكريم والسنة المطهرة ملامح وأبعاد الشخصية الصالحة ... ففي القرآن الكريم نجد التأكيد على الزوجة التي جعلها الله سكناً وراحة واطمئناناً لزوجها ، ومنبعاً للمحبة والود والتعاطف ، وفيضاً من الإيثار والعطاء والرحمة ... ولا يخفى ما لهذه الصفات للمرأة من أثر على الحياة الزوجية السعيدة .

كما أشار القرآن الكريم المعاشرة بالمعروف ، وإقامة حدود الله بين الزوجين ليكونا زوجين سعيدين متعاطفين متوافقين ومتآلفين .

ومن أبرز صفات الزوجة الصالحة ، ومن محاسن أخلاقها خلق الطاعة ، الطاعة بالمعروف التي ينجم عنها استقرار الحياة الزوجية السعيدة وينتج عنها رضى الله سبحانه وتعالى عن المرأة المطيعة ويكون ثوابها الجنة كما أخبر النبي ﷺ : « المرأة إذا صلّت خمسها ، وصامت شهرها ، وأحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، فلتدخل من أي أبواب الجنة شاءت » .

بل إن طاعة المرأة لزوجها ، وحسن تبعُّلها له يرفع أجرها إلى مرتبة المجاهدين في سبيل الله ، كما سبق وبيّنا في قصة أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها .

وتعتبر القناعة والرضى من أجمل صفات المرأة الصالحة ؛ لأنها بقناعتها تكون قد توّجت إيمانها برضاها ــ بقضاء الله وقدره فيها ــ فعاشت راضية مرضية

مما يجعلها هانئة البال سعيدة النفس ، لا عُقد تعاني منها ، ولا حسدا يأكل صدرها ، غير نَقِمَةٍ على ذوات الحظوظ من حولها ... وهي تتمتع بكامل صحتها النفسية السوية ، التي تشع سعادة ورضى على من حولها ، وبذلك تقنع بالحلال ، ولو كان قليلاً ، ولا تكلّف زوجها فوق طاقته ، ولا تجرح مشاعره ، أو تهين كرامته ، بدعوى تقصيره أو ضيق ذات يده ، بل على النقيض من ذلك تحترم وتصون كرامته ، وتشاركه مشاعره ، وتنسيه متاعب الدنيا ، وتهوّن عليه مصائبها ، وتأخذ بيده في مواجهة مشاكلها مستعينة بإيمانها وصبرها ... لكي أختي المؤمنة بالسيدة خديجة ــ رضي الله عنها ــ أكبر قدوة في حدبها على الرسول ﷺ في أول مسيرة الدعوة ، وتشجيعها له ، ورفع معنوياته ، وبذلها مالها ونفسها في سبيل الدعوة ، ومشاركتها له فيما تعرّض له من أذى أعدائه ، وتحملها شظف العيش ، ومعاناة الفقر والمقاطعة ، وهي سيدة مُسِنَّة كانت ذات مال وشرف في قومها .

كما أنَّ المرأة القانعة الرضية ترفع اسم زوجها بين الناس ، فلا تذكره أمامهم إلّا بخير ، ولا تُشهر به أو تفضح له سراً .

والمرأة القنوع لا تنكر الإحسان ولا العشير ، ولا تجحد لزوجها حقاً من حقوقه ، بل إنَّ قناعتها تدفع بها إلى جعل مكان الصدارة والقوامة التامة لزوجها في بيتها ، كما تغضّ النظر عن بعض أخطائه أو عيوبه ، عملاً بقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « لا يَفْرِكْ ــ يبغض ــ مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » ... بل تتجاوز الدور السلبي إلى العمل على كل ما يُرضي الزوج ، ويُدخل السعادة إلى قلبه ، لتكون ذات تجارة رابحة مع ربها تأسياً بتوجيهات الرسول الكريم حينما قال لإحدى النساء : « أذات زوجٍ أنت ؟ » قالت : نعم ... قال : « فأين أنت منه ؟ » قالت : ما آلوه إلّا ما عجزت عنه قال : « فكيف أنت له ، فإنه جنّتك ونارك » .

أما العفة والحياء فيعتبران أسمى وأنقى وأرقى وأجمل ما يُزيِّن المرأة الصالحة ، فالعفيفة الحييَّة لا تكون إلّا لزوجها ، لا تنظر إلّا إليه قاصرة الطرف عليه ...

وقد أشار القرآن الكريم إلى خلق العفة والحياء بصورة واقعية حينما وصف إحدى المرأتين اللتين وجدهما سيدنا موسى عليه السلام عندما ورد ماء مدين وسقى لهما فقال :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص ٢٥]

وأشار القرآن الكريم أيضاً بالمرأة الصالحة لكونها قانتة حافظة للغيب

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء ٣٤] .

فالمرأة الصالحة القانتة ــ المطيعة ــ هي التي تحفظ غيبة زوجها ، كما تحفظ حضوره فتصون بذلك عرضَه وشرفه وسمعته ، فلا تظهر مفاتنها إلّا له ، وتقرُّ في بيتها ، وإن خرجت منه فهي تعطي للطريق حقه ، من حجاب مادي ومعنوي ، يسترها وحشمتها ووقارها ، وغض بصرها وصوتها ، فلا تقول إلّا قولاً معروفاً ، لا خضوع فيه ولا تكسرُ ... لا تخوض في الأسواق ، ولا تخرج إلّا حين الضرورة .

كما أن المرأة العفيفة تُرضي دافع حب الجمال عندها والزينة بالتجملّ والتنزيُن لزوجها ، بحيث تبدو أمامه بأجمل مظهر شكلاً ورائحة وصوتاً وسلوكاً وصورة ، فتسرُّه إذا نظر ... وكما قال ابن عباس : « إني اتزيّن لامرأتي كما تتزينّ لي » .

ولعل صفة التواضع والرقة والأنوثة ولين الجانب من أكمل ما يزيّن خلق المرأة الصالحة ، حيث يجعل من تواضعها إنسانة من أحاسن الناس أخلاقاً ، الموطئين أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون

ولا يخفى ما لأنوثة المرأة ورقتها من تأثير على قلب الرجل ، إذ يجعله يجد فيها النصف الآخر المكمّل والمجلّي لرجولته ، ولا يفهم من التواضع والرقة أن

تمتهيني نفسك امتهاناً يزهِّد بك زوجك أو يحط من كرامتك ... فهذا أمر وذلك شأن آخر لا يخفى على كثير من النساء الذكيات والفطنات .

وبما أن دور المرأة في البيت دور الملاذ الذي يلوذ به الزوج والأولاد بعد عناء النهار ، والسكن الذي ينشدون العودة إلى أفيائه ، فلابُدَّ لها من التحلي بخلق الصبر وسعة الصدر والحلم والحكمة في معالجة الأمور ، لا سيّما أن كثيراً من المشكلات الزوجية الأسَريه لا تُحَلُّ بالتضجر والتسرع والغضب ، بل بمواجهتها بسعة صدر وصبر وترو وتبصر وتحلُّم : « فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلُّم » والمرأة الصالحة تكون القدوة الصالحة في أمور كهذه .

ولابُدَّ أن نؤكد مسئولية المرأة الصالحة في حمل أمانة رعاية بيت الزوجية ، طاعة لأمر الرسول الكريم ﷺ : « المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها » متفق عليه .

ومسئولية الرعاية هذه تشمل كافة شئونه المادية والمعنوية ، الفردية والاجتماعية ، العقلية والعاطفية ، الزوجية والوالدية ، فتعطي كل ذي حق حقه من زوج وأولاد ، ورعاية مال وبيت وشرف وتربية وأخلاق .

بقي أن نذكر ونذّكر ببعض الصفات الخيِّرة التي لابد من أن تكمل بها المرأة الصالحة شخصيتها كالصدق والصراحة والدماثة والكياسة ، ومحاولة تعويد نفسها وزوجها أن يثق كل منهما بالآخر ، وأن يحترم كل منهما الآخر ، لكي تُبقي على حاجز الاحترام والثقة المتبادلة بينهما وتزيد من بنائه وتمتينه بالفعل والقول ، حتى يمكنها أن تُحقق في بيتها السكن النفسي والاجتماعي المنشود ، وتكون أشبه بشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعهامي السماء تُؤتي أُكُلها في كل حين بإذن ربها ... وارفة الظلال ، دائمة الخضرة والثمار ، متواصلة العطاء ما بقيت فى هذه الدار .

***

طاعة الزوج

طاعة الزوجة لزوجها حقّ له تستلزمه مكانته في الأسرة بصفته قيّماً لها ، فمن كانت له القوامة حقّت له الطاعة ، فالطاعة إذاً هي الوجه المقابل للقوامة وإذا انتفت أصبحت القوامة مهمة اسمية جوفاء لا تطبيق لها في واقع الحياة الزوجية .

وليست طاعة المرأة لزوجها إلّا فرعاً من طاعة أولي الأمر التي فرضها الله على عباده المؤمنين ، ففي سورة النساء نجد قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [آية ٥٩] فالزوج يُعتبر ولي أمر الزوجة وبالتالي تجب طاعته ضمن حدود دائرة طاعة الله ورسوله ﷺ ، ومن تشقُّ عصا الطاعة على زوجها فقد عصت ربّها ... وقد أكد الله تعالى هذه الصفة في الزوجة الصالحة في سياق آية القوامة ، فبعد إقرار مبدأ قوامة الرجل وبيان مسوغاتها وصف الله جلّ وعلا النساء الصالحات وصفاً خبرياً بقوله :

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء ٣٤]

ونفهم من تعريف « الصالحات » أنّهن المتحققات بكمال صفة الصلاح نظراً إلى أن أداة التعريف هنا تدلُّ على الكمال باعتبار استغراق هذه الأداة لكل عناصر الصلاح كما يقول علماء البلاغة .

أما وصف الصالحات بأنّهن « قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » فهو يدلُّ على أن المرأة الصالحة لا يوجد فيها نقيض هذا الوصف .

وهذا أبلغ من أمرهن بالطاعة وحفظ الغيب ونهيهن عن المعصية وخيانة

الأمانة ... وهو أسلوب تربوي رباني حكيم يعتمد على استخدام التوجيه غير المباشر بالتكليف مما يتلاءم والنفس البشرية . كما يدلّ على أن هاتين الصفتين هما بمثابة نتيجة لازمة لصلاحهن وانصياعهن لقوامة أزواجهن وحمايتهم ولا تتجلى أهمية هاتين الصفتين إلّا بتحليل معناهما : « فالقانتات » مأخوذة من القنوت ، والقنوت في كتب اللغة يعني الطاعة والقانت : المطيع ، فالقانتات : المطيعات والسياق هنا يُشير إلى طاعتهن أزواجهن وطاعتهن الله بقيامهن بما يتوجب عليهن من حقوق الله وحقوق أزواجهن ... وهذا ما ذكره المفسرون القدماء وقد أشار الإمام الرازي في تفسيره إلى هذا المعنى بطريقة استنباطية بقوله :

« واعلم أنَّ المرأة لا تكون صالحةً إلّا إذا كانت مطيعة لزوجها ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فالصالحات قانتات ﴾ والألف واللام في الجمع يفيد الاستغراق ، فهذا يقتضي أن كل امرأة تكون صالحة فهي لابدَّ وأن تكون قانتة مطيعة » .

وأما قوله تعالى بوصف القانتات « المطيعات » بأنهنّ أيضاً « حافظات للغيب بما حفظ الله » فهو معنى آخر مكمل لصفة الطاعة مبيناً دوافعها وأسبابها ... متضمناً بنودها .

وقد ذهب معظم كبار المفسرين إلى عدة معانٍ مستخلصة من هذهِ الآية ، كلها تدور حول ما تقدم فالحفظ للغيب يشمل كل ما على المرأة حفظه في غيبة زوجها فيما استؤمنت عليه من ماديات ومعنويات ... بما في ذلك أمور تتعلق بنفسها وأنوثتها وعرضها ... وأخرى تتعلق بزوجها من أسرار وأهل وولد وبنت ومال ، والغيب يشمل أيضاً كلّ ما غاب عن علم الزوج واستتر عنه في حضوره وغيابه ومن تحفظ ما استؤمنت عليه في غياب زوجها تكون قد استحقت لقب الصالحة القانتة « المطيعة » يحدوها في ذلك أمور مختلفات نستشفها من قوله تعالى : ﴿ بما حفظ الله ﴾ وقد أشار المفسرون إلى هذه المعاني وفسروها بمعانٍ عدة يظهر منها بالتدبر ما يلي :

١ ــ ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي بمقابل ما حفظ الله لهن من حقوق عند أزواجهن

وغيرهم ومما حفظ لهنّ من حقوق عند الأزواج ... حسن العشرة والقيام والقوامة على الوجه الصحيح وتأدية النفقة وغيرها ... وهذا يجري مجرى هذا بذاك ، أي أنّ مطالبة الزوجة بالطاعة وبالحفظ بالغيب هو مقابلٌ بما حفظ الله لهما بأحكامه الشرعية في المجتمع .

٢ — ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي بحدود ما أمر الله بحفظه من أشياء ... وتدخل فيها طاعة الزوج وتأدية حقوقه لأن الله أمر بذلك .

وكما أوصى الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم معشر الرجال بحسن عشرة النساء في مناسبات مختلفات استناداً إلى المبدأ الشرعي الذي دل عليه قول الله عز وجل في سورة النساء : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ [آية ١٩] فقد أكد على صفة الطاعة وطلب رضى الزوج من قبل النساء ، والأحاديث الواردة بهذا الشأن كثيرة منها ما يلي : قوله ﷺ : « إذا صلّت المرأة خمسها وصامت شهرها ، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت الجنة » .

بل إن طاعة المرأة لزوجها وحسن تقبلها له يرفع أجرها إلى مرتبة المجاهدين في سبيل الله ، وقد أخرج البزار والطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنه « أن امرأة قالت : يارسول الله أنا وافدة النساء إليك ! ثم ذكرت ما للرجال من الجهاد وغيره من الأجر والغنيمة . ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : أبلغي من لقيت من النساء أنّ طاعة الزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله » .

وطاعة المرأة لزوجها ينطبق عليها ما ينطبق على طاعة أولي الأمر التي حددها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « إنما الطاعة في المعروف » وبقوله : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » فطاعة المرأة لزوجها لا تعني أن تكون طاعة عمياء تُلغى فيها شخصية المرأة لتكون أشبه بآلةٍ تُنفذ دون تفكير أو رويّه بل لابد أن تكون طاعة متبصرة رشيدة ، تعي فيها المرأة ما عليها القيام به وتدرك أن سلوكها هذا فيه مصلحتها ومصلحة أسرتها بكافة أفرادها ... ومصلحة مجتمعها ، مع ضرورة الإشارة إلى أنّ باب الشورى والمراجعة في بعض الأمور

في الأسرة أمر مباح ابتداءً ، وقد روت كتب السيرة: أن نساء النبي ﷺ كنّ يراجعنه « يناقشن أوامره » وتهجره الواحدة منهن اليوم إلى الليل أي طول النهار .

وتطلب الطاعة من الزوجة في مسيرة الحياة الزوجية في أمور عدة أهمها : عدم عصيان الزوج في أدائه حقه الغريزي الذي شرعه الله له ... وهذا الأمر بالذات بالإضافة إلى أنه حقّ خاص للزوج ابتداء فقد قال تعالى بشأنه :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

[البقرة ٢٢٣] .. فإن تقاعس

الزوجة أو امتناعها عن أدائه يُعتبر من كبائر الذنوب التي ترتكبها الزوجة في حق زوجها ، وقد أكّد الرسول الكريم على ذلك بأحاديث مختلفة منها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » متفق عليه . وفي رواية لهما : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح » وفي رواية أخرى قال ﷺ : « والذي نفسي بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلّا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها » ومراعاة لهذا الحق فلا يجوز للمرأة أن تصوم صيام تطوع وزوجها شاهد إلّا بإذنه . فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن الرسول ﷺ : أنه قال : « لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلّا باذنه » أخرجه البخارى .

ومن هذه الأمور عدم عصيان الزوج في إدخال بيته من يكره أو يمنع من دخوله كائناً من كان ، ففي الحديث قوله ﷺ عن أبي هريرة : « لا يحلّ للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلّا بإذنه ولا تأذن في بيته إلّا باذنه » متفق عليه .

وكذلك الأمر إذا منعها من الخروج فعليها أن تمتثل وتقرّ في بيتها ... فعن أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قوله : « أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت في سخط الله تعالى حتى ترجع إلى بيتها أو يرضى عنها زوجها » .

ومن طاعة الزوج التي يشملها حفظ الغيب محافظة المرأة على نفسها وعلى بيت زوجها وولده وماله وأن ترعى ذلك حق الرعاية فتعف نفسها عن كلّ ما حرّم الله وكره الزوج ، ولا تتصرف في مال زوجها من غير إذنه ، ولا تُنشيء أولادها على أمرٍ لا يرضاه الله ولا زوجها وقد وصف الرسول الكريم المرأة الصالحة بقوله : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحةٍ إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرّته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله » .

ومن بنود الطاعة أيضاً متابعة الزوجة بعلها في المسكن طالما كان مستوفياً الشروط الشرعية ومكان الزوج قائماً بحقوقها كاملة ، وإلاّ فما معنى « الزوجية » إذا كان كلٌّ من شطريها في طرف ؟ وأين ظلال السكن والمودة والرحمة ؟ ومن فعلت خلاف ذلك تُعتبر ناشزة عاصية يحق للزوج إلزامها بالعودة إلى المتابعة بالمسكن بسلطة القضاء الشرعي .

ويتجلى حق الزوج في الطاعة من قبل الزوجة في أبرز صوره في مجال تأديبها في حال نشوزها وفق المراحل المتدرجة التي أمر بها الشارع الحكيم : الوعظ فالهجر في المضجع فالضرب غير المبرح المأذون به شرعاً وفق شروط محددة حتى تفيء إلى أمر الله وترجع إلى الطاعة التي تعتبر سياجاً يحميها من أي تمادٍّ من قبل الزوج أو طغيان بغير حق

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء ٣٤]

وهذا الأمر في آية القوامة يحجّم دور الزوج ضمن الحدود التي رسمها الشارع ويمنعه من استخدام ما خوّله الله من سلطة في ردعها عن عصيانه في غير وجه حق .

والمرأة الصالحة القانتة مطيعة بالفطرة ، ومطيعة بالفكرة ، أما طاعتها بالفطرة فتعود إلى ما جلبت عليه من صفات وغرائز تتناسب مع المهمات التي خُلقت من أجلها ... وأما طاعتها بالفكرة فترجع إلى أن المرأة العاقلة الصالحة تدرك

ما لها وما عليها وترى أنَّ من واجب الرعية طاعة راعيها لما في ذلك من المصلحة العامة ... لا سيّما وأنّ جو السكن الأسرى النفسي المفروض توافره في الأسرة المسلمة لا يمكن تحقيقه إلّا إذا تحققت القوامة الرشيدة من قبل الزوج ، والطاعة المتبصرة الحميدة من قبل الزوجة مع ضرورة الإشارة هنا إلى أن طاعة الزوجة سلباً أو إيجاباً تسري إلى أولادها بالقدوة والتقليد ...

ويكفي المرأة عظة هذا الحديث عن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربّها وهي على قتب لم تمنعه » رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

هذه الوصايا بطاعة الزوجة لزوجها تجعل البيت المسلم مملكة من السعادة والهناء والفرح والسرور والاستقرار النفسي والسكن السعيد وبغير الالتزام من الطرفين بهذا المنهج القويم يتحول البيت إلى قطعة من الجحيم وحقل من الألغام التي تفجر أركانه وتقوّض بنيانه .

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾
[طه ١٢٣ ـــ ١٢٧]

* * *

الأخـلاق

المرأة الصالحة ذات الخلق الكريم ، يزينها الأدب والحياء ، ويحلّيها الفهم والذكاء لأن الخلق الحسن هو قوام حياة المرأة المسلمة وعليه مدار سعادتها فإن رزقته رُزِقت كل خير ، وان حُرمته حُرمت كل خير ، ولقد قال الرسول ﷺ لمن جاء يسأل عن البر « البر حسن الخلق » رواه مسلم ، كما سُئل عن أكثر ما يدخل الجنة فقال « تقوى الله تعالى ، وحسن الخلق » رواه الترمذيّ وصححه . وقال ﷺ في بيان شرف حسن الخلق : « إنّ من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » رواه البخاري ، وقال : « ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل ، وانه لضعيف العبادة » رواه الطبراني بسند جيد . والأخلاق الفاضلة تكتسب بالرياضة ، والمواظبة والتعود ، وإليك ـــ أختي المسلمة ـــ جملة صالحة منها ، فروّضي نفسك عليها ، وتعوّدي التخلّق بها ، وواظبي عليها تفوزين إن شاء الله تعالى بحسن الخلق وحسبك خيراً وشرفاً حسن الخلق :

١ ـــ الصبر وهو أن تحبسي نفسك على الطاعات ، وفعل الخيرات بلا ضجر ولا ملل ، كما تحبسينها بعيدة عن المعاصي وعن كل خلق سيء كالكذب والخيانة والغش والخسة ، والكبر ، والعجب ، والبخل والشح ، والجزع بإظهار عدم الرضا بحكم الله ، ومجاري أقداره في عباده .

٢ ـــ الصفح والإعراض عن كل ما تسمعين من كلمة نابية ، أو حركة عنيفة ، فلا تردى على السيئة بالسيئة ، ولكن بالحسنة وهي الكلمة الطيبة ، قابلي الجفاء والغلظة من أفراد عائلتك بالعطف والرحمة واللين ، إن علت أصواتهم اخفضي

صوتك ، وإن قبحت كلماتهم جمّلي لفظك ، وطيّبي كلماتك ، بهذا تملكين قلوبهم ، وتظفرين بودهم وقربهم وحسن معاملتهم .

٣ ـــ الحياء والاحتشام فالزمي نفسك بهذا الخلق فإنه أخو الإيمان ، وجماع البر والإحسان فاستحيي من الله حق الحياء ، فلا يراك على ما يكره ، واستحيي من الملائكة فلا تتكشفي في خلوتك ما استطعت . واستحيي من زوجك وأهلك ومن سائر الناس ، فلا تقولي البذاء ، ولا تنطقي بالفحش ، ولا تعملي عملاً ، أو تقولي قولاً يجانب الحشمة والحياء .

إنّ الحياء كله خير وخير كله ولا يأتي إلّا بالخير فاستري محاسنك وحسّني كلماتك وغضي بصرك وأطيلي ثوبك ولا تكشفي رأسك ، فلا يفارقك خمارك إلّا إذا خلوت بزوجك في عقر دارك .

٤ ـــ كوني سخية فلا تبخلي بفضل طعام أو شراب أو كساء ، ابذلي المعروف ، وتصدّقي من مال زوجك بعد استئذانه وإذنه فتشاطرينه الأجر والمثوبة « ان المرأة إذا تصدّقت من مال زوجها باذنه لها نصف الأجر وللزوج النصف » رواه البخاري . فبالصدقه لك المثوبة وتسلمي من العقوبة

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل ٥ ـــ ٧] ، فاحذري الشح واتقيه

بالصدقة القليلة والكثيرة . أحسني إلى جارتك كما تحسنين إلى أقاربك ، واعلمي أنّ الله تعالى مع المحسنين المخلصين .

٥ ـــ عليك بالإيثار فآثري أهل بيتك على نفسك ، فإنّ الإيثار من أخلاق الصالحين ، وصفات الصديقين

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر ٩] . جوعي ليشبع أهل

بيتك ، واظمئي ليرووا ، واتعبي ليستريحوا ، ولا تحسبي هذا نقصاً فيك بل هو الكمال ، والجمال ، والجلال . إنك بإيثارك الخير تصبحين سيدة والسيدة خير من المسودة ، وفي الحديث الشريف « خادم القوم سيِّدهم » رواه البخاري . وقيل لأحدهم : « بم ساد فيكم فلان ؟ قال : احتجنا إليه ، واستغنى عنا » فاعرفي هذا الخلق ، واكسبيه بالرياضة للنفس ، والمجاهدة لها .

٦ ــ الصمت ، وحسن السمت ، إلزمي هذا الخلق فقللي من الكلام ، ولا تتكلّمي إلّا بخير لقوله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه ، وإذا تكلمت فأوجزي في الكلام ، وقولي المعروف فقط . قال تعالى في تأديب نساء النبي ﷺ :

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب ٣٢ ــ ٣٣] ، والزمي حسن السمت في لباسك ،

ومشيك وقعودك ، وفي عملك وقولك ، فتأني واحلمي ، ولا تغضبي ولا تضجري ، ولا تفرحي فرح الأشر والبطر ، ولكن احمدي الله تعالى واثني عليه بنعمه ، وأكثري من شكره وحمده .

٧ ــ عاملي غيرك بما تحبين أن يعاملوك به ففي الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » رواه البخاري ومسلم .

تلك أيتها المؤمنة جملة من الأخلاق الفاضلة فتحلي بها ، وتجمّلي باكتسابها ، وعيشي عليها تكملي وتسعدي . والله معك ولا يتركك

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل ١٢٨]

٨ ــ ما أجمل أن تحفظي وصية المرأة البدوية إلى ابنتها في ليلة زفافها لتعملي بها كزوجة وأم لأنها تبيِّن ما ينبغي أن تكون عليه الزوجة من خلق في معاملة

زوجها : « أي بنيّه ، أنت فارقت بيتك الذي خرجت منه ، وعُشَّك الذي درجت فيه إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أَمَة يكن لك عبدا ، واحفظي له خصالا عشراً يكن لك ذخراً : أمّا الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة ، وحسن السمع والطاعة . وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشمّ منك إلّا رائحة طيب . وأما الخامس والسادسة ، فالتفقد لوقت نومه وطعامه ، فإنّ تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة . وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير . وأمّا التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمراً ، ولا تفشين له سرّاً ، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره . ثمّ إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إن كان فرحا » .

٩ ــ إحذري كل الحذر أن تكوني كالمرأة التي وصفها زوجها حين سئل عنها فقال : « سليطة اللسان ، كانٌ لسانها حربة . كلامها وعيد ، وصوتها شديد . تدفن الحسنات وتفشي السيئات . تعين الزمان على بعلها ، ولا تعين بعلها على الزمان . ليس في قلبها له رأفة ، ولا عليها منه مخافة ، إن دخل خرجت ، وإن خرج دخلت ، وإن ضحك بكت ، وإن بكى ضحكت . إن طلّقها كانت له حريبة ، وإن أمسكها كانت عليه مصيبة . سعفاء ورهاء ــ حمقاء ، خرقاء ــ كثيرة الدعاء ، قليلة الإرعاء ، تأكل لمّا ــ تلقم الطعام فتأتي عليه ــ وتوسع ذمّا . صخوب غضوب ، بذيّة دنيّة ليس تُطفأ نارها ، ولا يهدأ إعصارها . ضيقّة الباع ، مهتوكة القناع . صبيها مهزول ، وبيتها مزبول ــ قذر ، إذا حدّثت تشير بالأصابع ، وتبكي في المجامع بادية من حجابها ، نباحة على بابها . تبكي وهي ظالمة ، وتشهد وهي غائبة . قد ذلّ لسانها بالزور ، وسال دمعها بالفجور » فهذه المرأة مهما بلغت من علوّ النسب وروعة الجمال ، لا يهنأ معها عيش ، ولا يسود البيت الزوجي صفاء ووئام فتغرق سفينة الأسرة وتتحوّل إلى حطام .

* * *

الطريق إلى قلب الزوج

ها هي سفينة الأسرة تمخر بحر الحياة وتبحر بهدوء واتزان إلى غاياتها الجميلة ومقاصدها السامية النبيلة يقودها الربان المؤمن التقي الذي يعرف ما له وما عليه من حقوق وواجبات ، وتعاونه رفيقة الدرب في رحلة الحياة ... الزوجة الصالحة الفطنة التي تتبع وتتخذ الوسائل النفسية الاجتماعية الحكيمة في تعاملها مع رفيق دربها إذ يُهيمن على العلاقات بينهما وبين بقية أفراد الأسرة ــ ثمرات الفؤاد وفلذات الأكباد ــ يُهيْمن قانون الزوجية الرباني ودستوره المتمثل في المودة والرحمة .

إنَّ هٰذا النجاح والجمال والسكن والأستقرار والأمن النفسي بين الزوجين الحبيبين المتآلفين ... وهذه الحياة الأسرية الهانئة السعيدة الرغيدة كان وراءَها الزوجة الصالحة التي عرفت كيف تمتلك قلب زوجها بإتباع والتزام الوسائل الخيرة التي أدتْ بالتالي إلى الاستجابة الخيرة من الزوج فلكل فعل رد فعل .

ولكن ما هي هذه الوسائل الخيِّرة التي اتبعتها الزوجة الصالحة لامتلاك قلب زوجها ؟

تقول الزوجة الصالحة الحكيمة الرزينة : لقد اتبعت الوسائل التالية والتي أنصح الزوجات باتباعها وهي :

الوسيلة الأولى

لعل أقصر طريق لأسر قلب الزوج اتخاذ حسن الخلق منهجاً للتعامل معه ، وإذا كان حسن الخلق للمؤمن يؤهله لصحبة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة

والتسليم في الجنة فإنه بالنسبة إلى الزوجة أجمل زينة تتحلّى بها مما يجعل زوجها لا يرى في دنيا النساء إلّا زوجته حتى لو كانت ذات نقص في جمال أو مال أو علم أو حسب أو منزلة اجتماعية فإن جمال الروح ورقتها وحسن الخلق لا يفوقهما أي جمالٍ وحُسْنٍ آخرين . وأهم ما في حسن الخلق كظم الغيظ وضبط النفس عن نزواتها ، ولجم اللسان عن قول القبيح ، وتعويده الكلمة الطيبة الرقيقة الحلوة التي لا عنف فيها ولا أذى ، والتي تعتبر بلسماً يداوي كثيراً من الجراحات ويقضي على بوادر المشكلات ، وقد قال الرسول ﷺ : « إنَّ من البيان لسحرا » .

الوسيلة الثانية

واقتداءً بالسيدة خديجة رضي الله عنها إحدى سيدات نساء أهل الجنة ، التي جمعت في نفسها في بيتها عدة نساء في وقت واحد وفق مقاييس عصرها ، فعلى كل زوجة مسلمة أن تتأسى بها ما أمكنها وأن تجمع في نفسها بضعة نساء في وقت واحد مما يجعل زوجها يجد فيها كل النساء اللاتي يحتاجهن بيته ، إن تكون أماً رؤوفاً ، ومربية فاضلة لأولاده ، وزوجة ودودة رحيمة كاتمة لأسراره ، وصديقة تتفهم مشاكله وتشاركه مشاعره وترضي ذوقه وتتعاون معه على السرّاء والضراء ، وتواسيه في نفسها ومالها إنْ احتاج إليه ، وسيدة راعية لبيتها تهتم بشتى شئونه وتتجلى لمساتها في كل ركن من أركانه . ولا شكَّ أن زوجة من هذا النوع تجعل زوجها يرى فيها دنياهُ السعيدة إذا ما أدار ظهره لدنيا الناس .

الوسيلة الثالثة

وتفادياً لاختلال التوازن في نظام الأسرة لابدَّ للزوجة الحكيمة الرشيدة من أن تُنظِّمَ حياتها الأسرية بشكل شامل كامل متوازن يتمتع كل طرف منه بحقوقه كاملة من زوج وولد ونفس وأهل وزور عملاً بتوجيهات النبي الكريم عليه أفضل

الصلاة والتسليم في نصيحته لعبد الله بن عمرو بن العاص بأن يُعطي لكل ذي حق حقه من نفس وزوج وزور وولد .

الوسيلة الرابعة

على الزوجة لا سيّما حديثة العهد بالزواج أن تهيىء نفسها لحياتها الجديدة بفطام نفسي عاطفي يؤدي بها إلى فصال تدريجي عن أسرتها وبيئتها السابقة ... مستخدمة لتحقيق هذا الغرض قوة إرادتها وقناعاتها الجديدة للتكيُّف مع بيئة الحياة الزوجية التي انتقلت إليها ، ومع محاولاتها إشعار الزوج ولو من باب المجاملة في باديء الأمر بأنها من أسعد الناس في حياتها معه ، وأنها قد مفعول السحر في نفسه ... كيف لا ؟ وهو يجد أهل مملكته الصغيرة بأسرها يبتهجون لعودته ويشتركون في استقباله .

الوسيلة الخامسة

ومن الأساليب الذكية اللبقة في معاملة الزوج أن تحقق المرأة ما تريد إن شعرت أنه غير راغب فيه ابتداء بطريقة غير مباشرة ، كأن تصرف الموضوع نهائياً إنْ لم يكن ذا أهمية أو تعيد طرحه بطريقة ذكية غير مباشرة كأن تستعمل أسلوب التساؤل حوله ، أو أخذ الرأي مثلاً حتى توحي إلى الزوج بأنّه هو صاحب الاقتراح وأنه لم يُفْرض عليه ... وبهذا يتحقق لها ما تريد دون إثارة مشكلات ، وكم من خلافات زوجية تنشأ من اختلاف وجهات نظر حول موضوع مّا ، مع إصرار كل من الزوجين على موقفه دون تراجع .

الوسيلة السادسة

ولا ننسى أنَّ اهتمام المرأة بأنوثتها وزينتها دون مبالغة أو تبذير أمر ضروري للحفاظ على قلب الرجل وقناعته فيها ، علماً بأن أجمل صباغ يجمّل فمها ابتسامتها العذبة ، وأروع كحل يُزيِّن عينيها نظرتها الحانية الرقيقة ، وأبهى لباس ترتديه أنوثتها ورقتها ، وأطيب عطر يفوح منها نظافتها ... لذلك عليها أن تعطى

عينه حقها بأن لا يرى فيها إلّا جميلاً كما تعطى أذنه حقها فلا يسمع منها إلّا طيّبا ، وتعطي أنفه وذوقه حقهما فلا يشمُّ أو يذوق إلا زكيا ... وهكذا تملك عليه حواسه كما ملكت قلبه ... هذا مع الإشارة إلى أن اهتمامها بأنوثتها وزينتها يجب ألا يجعلها تهمل الإشراف على بَيْتِها في كل ما حوى من أولاد وأشياء وأمور أخرى كالطهي والنظافة والترتيب فهي كلها أمور داخلة ضمن رعايتها ومسئوليتها كراعية مسئولة عن رعيَّتها .

الوسيلة السابعة

ثمَّ إن على الزوجة منذ باكورة الحياة الزوجية أن تحترم زوجها وكل ما يتعلق به كما تحترم نفسها ولا شك أن التي تحترم كرامة ورجولة ورغبات زوجها وما يمتُّ إليه بصلة تجعله يحترمها ويعاملها بالمثل ، وإن أشد ما يُسيء إلى الزوج عدم احترامه ، أو تسفيه رأيه أو نقد تصرفاته وكشف عيوبه ، بدل سترها ومحاولة مداراتها واصلاحها بطريقة غير مباشرة ، ومما يسبب نفوره أيضا مناقشته من عال وبصوت مرتفع مما يجرح كرامته ويحط من رجولته ويشوّه صورة زوجته المحببة لديه . وعلى النقيض من ذلك لابد من تكريم الزوج بأعتباره رجلاً له القوامة والقول الفصل ، ولا أظن أن بيتاً يتبادل فيه الزوجان الاحترام والتكريم ومراعاة المشاعر يمكن أن نشم منه رائحة خلاف أو تعاسة ، بالإضافة إلى أنه على الزوجة أن توطّد نفسها وتكيّفها على أن يكون هواها من هواه ، وأن تحب ما يحب وتكره ما يكره من أهل وصحب وأشياء ضمن طاعة الله وبقدر استطاعتها ، دون أن تفقد ذاتيتها أو تمتهنها وفي ذلك راحة وسعادة لها وله ولأسرتهما .

الوسيلة الثامنة

ولا يعني كل ما تقدم أن تكبّل الزوجة قرينها بقيود الزوجية ، بل لابد من أن تترك له هامشاً من الحُرية في صفحات كتاب حياتهما الزوجيّة ... فلا تتصور مثلاً أنها تتمتع بذكاء حاد إذا ما كشفت لزوجها كل مرّة أنها على علم بكل

شئونه صغيرة وكبيرة ... أو أنها تعرف لما فعل كذا ... أو قال كذا ... بل عليها أن تتغابى إن وجدت أنها بكشفها ما تعرف قد تؤذي شعوره ، وتقيّد حريّة فكره أو سلوكه ... كما أن عليها أن تدع له حُرية التصرف داخل بيته أو خارجه فيما أحلَّ الله من شرابه أو طعامه أو منامه إن شعرت أن في ذلك راحة له وسرورا ، أو أنها ستصطدم معه لو عارضته . وكذلك الأمر إن أراد أن يخرج للقاء بعض أهله أو صحبه لوصلهم وزيارتهم بين الفينة والفينة ، أو لقضاء مصالح بعض الناس ... فعليها أن لا تحجر عليه حريته ، وأن تحاول أن تجد ما يشغلها عنه في بيتها وما أكثر ما تجد .

هذه الوصايا والوسائل التربوية الأسرية ليست إلّا معالم في طريق الحياة الزوجية قد ذكرت على سبيل المثال لا الحصر ، كما أنها ليست وصفة ثابتة وحكما قاطعاً لا تقبل زيادة أو تعديلاً من كل حسب ظروفه وملابساته وحالته الخاصة ، وإنما يُستحسن للزوجة المسلمة لا سيَّما حديثة العهد بزواج أو من بدأت تشعر ببوادر خلافات ونشوز وشقاق بينها وبين زوجها أن تسترشد بها مستعينة بالله أولاً وآخراً ، مع تحويرها وملاءَمتها طبقا لشخصيتها وشخصية زوجها وظروفهما النفسية والاجتماعية ، ومع استخدامها لأساليب جديدة رشيدة خاصة بها قد ثبت لدى الخبرة نجاحها في التعامل مع زوجها .

وعلى العموم فالمرأة المثالثة التي لا تنسى أنها أنثى والأنوثة تعني الرقة والجاذبية والدلال ... والتي تراعي الأوليات فلا تهتم بشيء مثل اهتمامها بزوجها ... والمنطقية في طلباتها ... والتي لا تختلق النكد بل تكون نبعاً فياضاً بالحب والسكينة ... والتي تحافظ على صورتها الحلوة التي رآها عليها زوجها أول مرة ... والتي تتحلى باللباقة واللباقة تعني بكل بساطة :

الكلمة المناسبة والفعل الملائم ورد الفعل الذكي ... والتي تحرص على تحصيل خبرات جديدة بتعلم كل جديد مفيد والاستفادة المتوالية من خبرات الآخرين وتجاربهم ... والتي لها عقليتها المتكاملة وشخصيتها الناضجة ... والتي تجيد معاملة أهل الزوج وتلتمس الاعذار لمن تتعامل معهم ... والتى تعلم

أن النظافة أبقى لها من الجمال في إطار من الوسطية والاعتدال فلا تفرط في الزينة ولا تغالي باتباع الموضة ... والتي تخلص لزوجها حتى ولو كانت لا تحبه فلا تخونه في نفسها ولا ماله بل تحترم الوفاء للميثاق الغليظ الذي بينهما ... والتي لا تعتبر المال أصدق دليل على الحب فكلما أنفق زوجها أكثر اعتقدت أنه يحبها أكثر وإن قصّر في الانفاق أو عجز عنه اعتقدت أنه قد كفّ عن حبها ... والتى لا تسرف في طعامها وشرابها بل تعتدل في كل شأنها ، لا تُفرِطُ ولا تُفرِّط ... والتي تقدّر الأمور بقدرها فلا تقلب الميزة عيباً ولا تحمل في عقلها سجلاً أسودا ... والتي تنزه عن الشجار ولا تدفع زوجها إلى التهور ولا تضع نفسها مواضع التهم ... والتي تفشي سراً ... والتي تشارك زوجها حلو الحياة ومرّها وترضي بما قسم الله لها وتتحدث بنعمة ربها ولا تنكرها ... مثل هذه المرأة تمتلك بسهولة ويسر مفاتيح قلب زوجها وتعيش الحياة الهانئة الرغيدة في مملكة الزوجيّة ... مملكة الإيمان والحب والحنان والخير .

الطريق إلى قلب الزوجة

الأصل أن تكون الحياة الزوجيه مبنية على المودة والرحمة والحب لا على النشوز والشقاق والحرب بين الزوجين فهما مسئولان عن استمرار ميثاق الزوجية الغليظ بينهما لأنهما شريكان متشاطران لكل كفله الذي تتعلق به تبعيته حسبما أوجب الله عليه ، وحسب فطرته التي فطره الله عليها ، ووسع نفسه وطاقته

وقد عرفنا مفاتيح قلب الزوج والصفات التى على الزوجة أن تتحلى بها والوسائل التي بها تتمكن الزوجة من امتلاك قلب زوجها .

وهذه المفاتيح والصفات والوسائل يحتاج إليها الرجل كذلك مع يسير من التعديل الطفيف لإمتلاك قلب زوجته وحبها له وثقتها به حيث يقول تعالى : ﴿ ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ .

ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يتزيّن لزوجته ويقول : « أحب أن أتزيّن لزوجتي كما أحب منها أن تتزيّن لي » وذلك لفهمه العميق لرسالة الإسلام

العظيمة القائمة على الحق والعدل المبنية على أساس : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وقد خلق الله الرجال بفطرة تؤهلهم لحمل أعباء قوامة الأسرة في الداخل والسعي والشقاء لكسب قوتها في الخارج . وأبان أن لهم درجة على النساء ، ولكل تشريف وتكليف يتناسب مع مكانته ومهمته .

وقد وصف الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم الرجال بقوله : « كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غيرُ مريم بنت عمران وآيا امرأة فرعون ... » [1] . ولهذه الميزة التي تفضل بها الرجل على المرأة ينبغي عليه أن يتجافى عن النقائص والصفات التي تؤدي إلى إيجاد النشوز والشقاق في الحياة الزوجية .

هذا ما يجب أن يكون ولكنَّ الواقع وللأسف على غير هذه الصورة المشرقة ففي بعض الأحيان يتصف الرجل بصفات تساهم في إيجاد النشوز والشقاق والنزاع ولابُد من معرفة هٰذه الصفات كي يتم تجنُّبها والعمل بأضدادها ... وهذه الصفات القاتلة المدمرة الهدامة هي :

* **الصفة الأولى** : سوء الخلق قولاً وعملاً ، وقد روى الترمذي بسنده عن رسول الله ﷺ قوله : « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللّعان ولا الفاحش ولا البذيء » ... وتتمثل دركات سوء الخلق في أمور منها الغلظة والشدّة في غير موضعها ... واستقبال الرجل زوجته وأولاده عبوساً مستدبراً إياهم ... مع نكد وتضجر وشكوى ... وتحرٍ متواصل عن النقائص والمشاكل ... يرافق ذلك كله قاموسٌ من شتى أنواع السباب والشتائم التي قد تصل إلى فحش الكلام والتهديد بالطلاق أو التلفظ به بمناسبة وغير مناسبة ، حتى يمسي لدى بعضهم وكأنه مفردة من مفردات الشتائم التي يصبّها على زوجته أو يهددها بها .

---

(١) رواه مسلم .

وقد يَصِل سوء الخلق إلى استعمال وسيلة الضرب المبرّح المؤذي الشائن لأتفه الأسباب ودون مبرر شرعي يستدعي ذلك ، وقد يشرك الأولاد بنصيب من هذه الشتائم وموجة من الضرب باليد أو بأداة من النوع الذي لو ضربت بها أجلد الحيوانات لنفرت من صاحبها وأنقلبت عليها رفساً وإيذاءً .

فأين هذا الزوج من أمر الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ ومن قوله عليه أفضل الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي »[٢] وفي حديث آخر عن عائشة عن النبي ﷺ : « إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه ولا يُنزع من شيءٍ إلا شانه »[٣] .

• **الصفة الثانية** : وهي صفة مركّبة من مجموعة من صفات لها جذور نفسية عميقة ، وهي صفة الاستبداد والأنانية وفرض السيطرة بالإكراه على كل من حوله في بيته من زوجٍ وولد ورحم وخدم ، والتصرف بكل أمر مهْما كان تافهاً وثانوياً ، متدخلاً بكل صغيرة وكبيرة ليست أصلاً من دائرة اختصاصه ، مسيئاً استعمال حقه في القوامة أيّما إساءة ... وهذا يرجع إلى أسباب : قد يكون بعضها جهلاً باستعمال حقه فى القوامة كمًّا كيفاً ، أو بسبب غرور وكبر وغطرسة يجعله متفرداً في إدارة أسرته بعيداً عن مبدأ الشورى الإسلامي ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ مستصغراً شأن كل من حوله وعلى رأسهم زوجته وشريكة عمره ، وقد رأينا في كتب السيرة كيف استشار الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام زوجه السيدة أم سلمة رضى الله عنها يوم صلح الحديبية في أمر خارج حتى عن أمور أسرته يتعلق بشئون المسلمين وانضباطهم وطاعتهم لنبيهم ، وقد يكون سبب هذه الصفة شعور بنقص مّا في ناحية أو أكثر ... أو اضطهاد ما كان قد وقع عليه في طفولته ونشأته ، أو أنه واقع عليه في دائرة عمله وميدان رزقه ، مما يجعله يعوّض ذلك بسلوك مغاير داخل محيط أسرته .

وكثيراً ما يرافق هذه الصفة صفة العناد والمكابرة حتى لو شعر أنه مخطيء

---

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي وابن ماجه والطبراني .

(٣) رواه مسلم .

وزوجته على صواب فالمهم لديه تنفيذ ما يرى ولو كان فيه ضرر واقع أو محتمل اثباتاً لذاته وتنفيذاً لسيطرته واستمراراً لعناده .

• **الصفة الثالثة** : وهي على النقيض من سابقتها ، وتتمثل بالرجل المهمل لنفسه أو ماله أو شئون بيته ومشاكله وولده ... وزوجٌ من هذا النوع يعيش على هامش الحياة ولا يعرف مصلحته الخاصة به أو بأسرته ، ولا يهتم بأمر من أمورها وكأنه غريب عنها . وتتحمل الزوجة هنا أعباء مسئولية الأسرة كاملة ... وتتخلخل تركيبة الأسرة إذ أن أحد أركانها الأساسية قد أصبح شبه معطل مما يورث مشاكل بين الزوجين وأخرى مع الأولاد وثالثة مع الناس ... كل ذلك بسبب فقدان الرعاية التي كلف بمسئوليتها تجاه نفسه وزوجه وولده وماله وكل ما له علاقه به ويقع ضمن دائرة أمانته .

• **الصفة الرابعة** : البخل والشح والتقتير في النفقة على زوجه وعياله ، والنفقة حق للزوجة على زوجها وهي أحد مسوغات القوامة ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [1] ... وإن للتقتير بالنفقة اثاراً سلبية ضاره ... إذ قد تدفع الزوجة إلى الكذب على زوجها لتدبر أمر معيشتها وقد تدفعها إلى خيانة الأمانة ، أمانة ماله وولده بطريقة جائرة لذلك نجد الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم قد أدرك مرارة ذلك على المرأة وأولادها ، فقال لزوجة أبي سفيان لما شكت إليه شح زوجها أنْ تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها بالمعروف .

وتزيد شقة الخلاف بين الزوجين إذا رافق هذا الشح داخل بيته نفقات بل إسراف قد يصل إلى درجة التبذير لغير أهل بيته من ضيفه وصحبه وأصدقائه والقريب والبعيد من أرحامه ... ولا يُفهم من هذا عدم إكرام الضيف أو الصاحب أو الرحم ، فهذه أمور مطلوبة ولكنها تأتي في مراتب دون مرتبة النفقة الواجبة على الزوج والأولاد والتوسعة عليهم بالمعروف . ويكفي الرجل تكريماً أن جعل

---

(١) النساء ٣٤ .

الله إنفاقه على زوجه وولده صدقة حيث قال ﷺ : « من أنفق على امرأته وولده وأهل بيته فهي صدقة »[1] .

• **الصفة الخامسة** : إنّ مما يقطع أواصر الود والرحمة بين الزوجين اهمال الزوج لزوجته ... وهي التي جعلها الله قرينة للزوج وشريكة عمر ورفيقة كدح في رحلة الحياة ، كأن تكون على هامش حياته ... فلا يشعرها باعتبار أو مكانة ... ولا يشركها بأمر ... ويتجاهل تماماً مراعاة مشاعرها كإنسانة ، ولا يتعدى دورها عنده أداء خدمة أو قضاء شهوة .

ويبخل عليها بالكلمة الطيبة الحلوة التى قد تنسيها تعب يوم بأكمله ، واللمسة الحانية التي تمكّن أواصر المودة وتنشر ظلال الرحمة وتساعد على تهيئة السكن الأسري السعيد .

ولقد حوت كتب السنّة العديد من هذه المواقف الرفيقة الحانية من قبل الرسول الكريم مع أمهات المؤمنين لا سيما السيدة عائشة رضي الله عنها وما روى عنها من أحاديث عدة عن مؤانسة المصطفى عليه الصلاة والسلام لها ، وحسن معاشرته لها ولغيرها من نسائه . ومن هذه المواقف : استفسارها عن مدى حبّه لها . وكيف أنه طمأنها بأنه كعقدة الحبل ، وكيف كانت تسأله دائماً عن العقدة ، فيجيبها بأنها على حالها . وغير ذلك مما تذخر به كتب السنّة ويضيق الحديث والمجال عن ذكرها .

• **الصفة السادسة** : وهي صفة تكاد تكون ألصق بالنساء فيها بالرجال ، وتتمثل في كون الزوج ثرثاراً مشّاءً بنميم بين زوجه وأهله وبالعكس أو بين زوجاته إن كان له أكثر من زوجة ، مما يشعل نار الفتنة بين الطرفين وبين الزوجين ، وبين كلّ ما له صلة بهذا الأمر ...

وتزداد شروخ الشقاق والنزاع كلما كان الزوج ذا خفّة وطيش مفاضحاً بأسرار الزوجية ، هاتكاً ستر ميثاقها الغليظ لكل من هب ودبّ ... وهذا أمر

---

(١) رواه الطبراني .

الإضافة إلى نهي الرسول الكريم عليه السلام عن الوقوع به وفضح أسرار الزوجيّة بهو يتيح الفرص لتدخل الكبير والصغير والغريب والقريب في شئون حياة زوجته حجب ألا تتعدى أسرارها وخصوصياتها جدران بيتها ، وإلا أصبحت الأسرة مرتعاً خصيباً لكل من أراه أن يزرع فيها بذور فتنة .. أو يضرب في أركانها معول بلدم .

وتتفاقم المشاكل الزوجية إذا كان الرجل أُذُن شَرٍّ لمن هم خارج بيته من أهل أو ، صحب لدرجة قد يصبح فيها الزوج بين أيديهم آلة تنفّذ ما ألقي في سمعها دون تفكير أو تمحيص ... وهذا كله يرجع إلى ضعف في شخصية الزوج عامة وخلقه ودينه خاصة .

• **الصفة السابعة** : وهي صفة الزوج المتقلّب سريع الاستهواء ... الذي لا يعرف له رأي ولا لون ... فهو مذبذب متقلب ، لا يفي بعهد أو وعد قطعه على نفسه . وقد يرافق هذه الصفة ويتناسب معها صفة الكذب لتغطية التأرجح في المواقف والتهرب من الوفاء بوعد أو عهد . حتى يصبح الكذب لديه صفة ملازمة تضاف إلى سوابقها مما يُفقد الزوج ثقة واحترام زوجته وولده ويجعل حياته الزوجية بيتاً عائماً فوق الرمال لا أساس له ولا قرار .

• **الصفة الثامنة** : الزوج الخوّان للعشرة الزوجية ... ممن تمتد عيناه إلى النساء الأخريات بالنظر أو بالكلام والاستحسان أو التشهي والتمني لأن يكون لديه واحدة منهن ... إلى غير ذلك مما يتنافى والرضى بقضاء الله وقدره وطلب آخرته ، ويتعارض مع العفة وحسن الخلق ، ويجرح مشاعر عشيرته — زوجته — حتى العظم ... ويجعلها تعيش في أتون الغيرة والشك والقلق .

• **الصفة التاسعة** : وهي صفة مناقضة لسابقتها من حيث المبدأ وصاحبها شكاك في كل أمر ، يغار دون ريبة ويتّهم دون بيّنه والرسول ﷺ يقول : « إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، وإن من الخيلاء ما يحب الله منها ما يبغض الله ، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، وأما الغيرة التي يبغضها

الله فالغيرة في غير الريبة »[1] وزوج من هذا النوع يشقي نفسه وزوجه وأسرته وقد يصل به الأمر إلى الطلاق دون مبرر شرعي .

• **الصفة العاشرة** : الزوج الطمّاع بمال زوجته أو بثروة والدها المُنتظرة بعد وفاته والذي يريد أن يضع يده على مالها ويتصرف فيه دون إذنها ... مناقضاً بذلك الشرع والرجولة والأمانة ، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى أنه يريد أن يعيش دون عمل كذكر النحل متطفلاً على زوجته مستثمراً لمالها دون وجه حق ... وتتفاقم مشكلة زوجين من هذا النوع كلما كان أحدهما أو كلاهما شحيحاً بخيلاً لا يتنازل عن موقفه أخذاً أو عطاءً ، وإذا ما أحضرت الأنفس الشحَّ فعلى الحياة الزوجية السلام !

هذه هي أهم الصفات التي يتصف بها بعض الأزواج بصورة عامة وتكون سبباً في تقويض حياتهم الزوجية ، ومثل هذه الصفات المنفّرة وغيرها إنْ وُجدت في الزوجة يمكن أن تسبب لها الشقاق والطلاق والفراق ولذلك لابد للزوجين من أن يتقوا الله كلٌ في زوجه وفي ولده وأسرته ونفسه ومجتمعه كي تتابع سفينة الأسرَةَ رحلتها إلى بر الأمان وشواطىء السلام وإذا ما حدث الشقاق فإن الإسلام يطلب من ربان السفينة إتباع خطوات علاجيّة إصلاحية سلميَّة حتى لا نصل إلى أبغض الحلال وهو الطلاق الذي يعني غرق السفينة الأسرية بكامل ركابها وسكانها .

* * *

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان .

مشاكل الأطفال السلوكيه

أطفالنا أكبادنا على الأرض فالطفل هو نبع السعادة في الأسرة ، وهو عماد البناء الإجتماعي للأمه ... وهو أمل المستقبل للتنميه والرخاء المجتمعي ، ولذا فإن كل الجهود والخدمات يجب أن توجه إلى تهيئة الفرص لنموه النمو الصحي السليم ... والتي تؤهله لتحمل مسؤولياته في البناء والعطاء بنجاح وفاعليه خاصه وأن ديننا الإسلامي الحنيف حثنا في أكثر من موقف على أن نخلص النصيحه والتربيه لأولادنا . وأن نرعاهم حق الرعايه ... حيث يقول الله تعالى في كتابه الكريم على لسان لقمان الحكيم وهو يرسي أسس تربية الأبناء وتوجيههم التوجيه الإسلامي الذي يتفق مع مبادىء ومقومات هذا الدين الحنيف : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ويقول أيضاً :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [سورة لقمان]

ويقول الرسول ﷺ : « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » ويوقل : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول » ، ويقول أيضاً : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

ولا شك أن هذه التوجيهات الساميه الرائده الصائبه من شأن الإلتزام والتقيد

بها بلوغ الهدف والصراط السوي الذي تتضاءل — بل تنعدم معه مشاكل السلوك . إلا أنه إذا تعرضت مسيرة نمو الطفل لبعض العقبات والعثرات المتمثله فيما يطلق عليه المشاكل السلوكيه فينبغي عدم إهمالها أو التغاضي عنها حتى لا تتفاقم وتؤدي إلى إحداث شروخ في بناء شخصية الراشد ... لأن مرحلة الطفولة هي الأساس التي تبنى عليه مراحل النمو الأخرى ، فإذا كان هذا الأساس قوياً ومتيناً كان البناء كذلك . أما إذا كان هشاً عليلاً كان البناء مريضاً منحرفاً وغير قادر على العطاء . وسوف نعرض بشكل موجز لبعض من هذه المشاكل السلوكيه للطفل وطرق التغلب عليها وهي :

أولاً الحركة الزائده :

وتعني أن يكون الطفل دائم الحركه لا يفتر ولا يهدأ طوال اليوم — وهذا شيء مزعج بالطبع — والأطفال عموماً يختلفون في درجة نشاطهم وحبهم للحركه ، ولكن النشاط المفرط يدل على تأخر الذكاء أو على إصابة الدماغ ، كما قد يكون نتيجة الإختناق الخفيف أثناء عملية الولاده ... كما قد يرجع إلى إنعدام الشعور بالأمن والإطمئنان النفسي ، ويكون العلاج بتوفير اللعب المختلفه والأصدقاء ومنح الحب والحنان والكشف الطبي للتعرف على الأسباب الفسيولوجية والإشارة إليها .

ثانياً حب المخاصمة والإعتداء :

إن حب المخاصمة والإعتداء من الصفات الطبيعيه لدى جميع الأطفال ... فهم يتنازعون لأتفه الأسباب — وعلى الأم ألا تتدخل بقدر الإمكان — من الأفضل أن تعمل على أن لا يقع الخصام من البدايه .

ومشكلة الإفراط في التعدي والمنازعه دليل على اضطراب نفسية الطفل ، وقد يكون السبب هو تزمت الأهل في معاملة الطفل ... كما قد يكون السبب منح الطفل حرية زائده ... كما قد يفعل الطفل ذلك كوسيلة للفت الأنظار عندما يرى أن أبويه ينفعلان نتيجة لاعتدائه على الآخرين ، فيكون ذلك مدعاه لسروره ويعاود فعلته ويكررها مراراً . وحتى يمكن علاج هذه المشكلة ينبغي إلتزام

الهدوء والرؤية في معالجة هذا الأمر ، والبحث عن دوافع الطفل لمثل هذا السلوك وعدم إعطاء أهمية كبيرة لاعتداءاته الصغيره والإهتمام بصحة الطفل لأن التعب الجسمي كفقرة دم مثلاً أو قلة النوم يساعد على اضطراب الحالة العصبية للطفل والتي تساهم في حدوث مثل هذا السلوك .

ثالثاً السرقه :

يظل الطفل فترة من العمر لا يعرف حقوق وممتلكات الآخرين ، لهذا فهو لا يرى في أخذها أو استعمالها أي شيء غير طبيعي ... ولكن مع مرور الزمن وإدراك وتمييز الطفل لحماية أهله للعبه وأشيائه مع الأطفال الآخرين يصبح أكثر قدرة على معرفة ما يخصه وما يخص غيره ... ولكن قد يظل الطفل يأخذ أو يسرق ممتلكات الغير وهنا ممكن القول أن هذا السلوك أصبح يمثل سلوكاً منحرفاً ينبغي البحث على أسبابه ومحاولة التغلب عليه عن طريق المتخصصين في المجال النفسي والإجتماعي بجانب توفير متطلباته الخاصه قدر الإمكان .

رابعاً الكذب :

يعيش الطفل فترة من الوقت لا يميز بين الحقيقة والخيال وبين الصدق والكذب ، ولكن بإرشاد وتوجيه وتنبيه الأهل له يستطيع أن يدرك معنى الصدق وهذا لا يحدث إلا بعد سن الخامسه ، وقد يلجأ الطفل بعد هذه السن إلى الكذب كوسيله للدفاع عن نفسه عندما يواجه ضغطاً من الكبار ... أو للتخلص من السلطة الأسرية الجائره أو للحصول على منافع لا يمكنه أن يحصل عليها بالطرق السوية ، أو لإشباع حاجات تنقصه أو لتجنب عقوبات قد تقع عليه . والطفل يتعلم الصدق من أسرته التي ينبغي أن تكون قدوة صالحه سلوكاً وقولاً .

خامساً حب لفت الأنظار :

يختلق بعض الأطفال الكثير من الطرق والمواقف للفت الأنظار والحصول على الاهتمام والانتباه ... فقد يلجأ الطفل إلى رفض الطعام أو يبقي اللقمة في فمه وقتاً طويلاً أو يتقيأ شيئاً مما ابتلعه وقد يلجأ الطفل إلى أكل التراب أو الأشياء القذرة . كما قد يلعب الطفل في أعضائه التناسلية . أو يستخدم بعض الحركات

بشكل متكرر مثل هز الرأس أو تحريك الساقين أو مص الشفاه أو قضم الأظافر ، كما قد يلجأ إلى استخدام حركات غريبه أثناء الكلام أو حركات شاذه في الوجه .

كما أن البعض يلجأ إلى بعض التصرفات الخطيرة كفتح أنبوب الغاز أو إشعال الحريق في أثاث المنزل أو فتح صنبور المياه أو يتصنع الإغماء أو يتلفظ بألفاظ بذيئه أمام الزوار ، وهكذا فإن الطفل قد يفعل ما من شأنه أن يغيظ الأهل ويجعلهم يتحدثون عنه ، وذلك كوسيلة للفت الأنظار ... ولهذا فإن من الخطأ التحدث عما يسببه الطفل من إزعاج في مواجهته أو أثناء وجوده حتى لا يشعر بالفخر بنفسه فيكرر ما يفعله . ومعالجة هذه المشكلة تكون بتجاهل أفعاله تماماً وعدم الإنفعال عندما يكررها حتى يفقد الرغبة في فعلها ... ولكن إذا كانت تصرفاته من النوع الخطر فهنا ينبغي عدم إظهار الإنزعاج الشديد بقدر الإمكان ، ثم محاولة اجتذاب الطفل إلى ممارسة أنشطة أخرى مفيدة ... وذلك أفضل في نتائجه من التهديد والوعيد والعقاب . كما ينبغي إفهام الطفل أنه لا يليق به أن يأتي بمثل هذه الأعمال ، وفي بعض الحالات ينبغي اللجوء إلى العقاب المتمثل في حرمان الطفل من الأشياء التي يحبها كالرحلات مثلاً . كما يمكننا أن نوفر للطفل بعض الأشياء المشابهة لما يستخدمه مثل أنبوبة غاز بلاستيكيه أو صنبور بلاستيك أو ما شابه ذلك من الألعاب التي يمكن أن تشغله لمعرفة الأسباب التي تدفع بالطفل لمثل هذا السلوك والتى قد تكون متمثله في إهمال الطفل أو عدم إعطائه الحب والحنان والإهتمام الكافي من المحيطين به .

وبشكل عام فالأم مسؤولة عن تعليم طفلها احترام القيود الضروريه وطاعة السلطة المعقولة غير الجائرة، واحترام ملكية الآخرين ، وأن يتعلم أن هناك من يستحقون الإهتمام كما يستحقه هو ، فالطفل له حقوق وامتيازات كما أن عليه واجبات ومسؤوليات ، وهو في حاجة إلى المزيد من الحرية حتى يتمكن من تحمل مسؤولياته ، وكلما نضج الطفل أمكن إفهامه الأسباب المعقولة الداعية للحد من حريته ، والنتائج المترتبه من جراء التعدي على حقوق الآخرين .

إن الأهل الذين يملكون زمام السلطة بالنسبة للطفل يجب أن يتمتعوا بالحزم واللطف والحكمة حتى يشعر الطفل بالإطمئنان .

كما يجب على الأسرة أن تعلم طفلها النظام حتى ينشأ سوياً قادراً على اتخاذ القرارات قادراً على تحمل المسؤوليات قادراً على الإعتماد على نفسه كلما اقتضت الحاجه .

ويلاحظ أن استخدام العنف والقوة في تعليم الطفل يعتبر من طرق التربية الخاطئه التي تؤدي إلى سلبية الطفل وعصيانه أو تمرده وشدة انفعاله ، كما قد ينجم عنها أساليب سلوكيه مدرسية سيئه . فقد يصبح الطفل مثيراً للشغب كثير العصيان مخالفاً للأوامر والتعليمات مهملاً لواجباته الدراسية .

وعلى هذا فإن أسلوب الحب والعطف والتشجيع والتدعيم هو من أنجح أساليب التربية والتعليم للطفل ..حتى يشب قوياً سليماً معافياً من العلل النفسية والإنحرافات السلوكيه حتى ينفع نفسه أولاً ثم مجتمعه الذي يحيا فيه ويندرج تحت لوائه .

نسأل الله أن يبارك لنا في أولادنا وأن يهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين .. إنه نعم المجيب .

* * *

مشكلة الكذب لدى الأطفال وكيفية علاجها

الكذب من الأساليب السلوكيه المرفوضه ، وهو من الخصال المذمومة التي نهى الإسلام عنها وحذر من ممارستها واللجوء إليها ، حيث أوضح الرسول ﷺ حين قال : « إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنه وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (متفق عليه) .

وعن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينه والكذب ريبه » (رواه الترمذي وقال : حديث صحيح) .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة ١١٩]

وعلى هذا نجد الكذب سلوك مذموم يورد صاحبه موارد الهلاك في الحياة الآخرة وينفر منه الآخرين في الحياة الدنيا ... هذا فيما يتعلق بالراشدين . فماذا بشأن الكذب لدى الأطفال ؟

يعتبر الكذب لدى الأطفال من المشاكل النفسيه الواسعة الإنتشار بين الأطفال ، والتي ترهق الآباء وتجعلهم دائمي الشكوى من كذب أبنائهم ، وهم لا يعلمون أن الكذب في الطفولة المبكرة من الأمور العاديه ، حيث يتصف الطفل في هذه المرحلة بسعة الخيال التي تجعله يميل إلى تخيل موضوعات ليس لها أساس من الصحة ... فقد يصف أشياء ووقائع لم تحدث ، لأنه كان يتمنى

حدوثها أو يتوقع بخياله حدوثها مثلاً . كما يكذب الطفل لعدم إتقانه الكلام أو لعدم قدرته على التعبير الصحيح ، وهنا يكون الكذب بالصدفه وعن غير قصد ... أو قد يكون نتيجة للإرتباك والخجل ، أو نتيجة لحب الطفل لشخص معين فيكذب لمصلحته مجاملة له أو خوفاً عليه من العقاب ... بالإضافة إلى كذب الطفل نتيجة لخوفه من العقاب أو الخسارة التي تقع عليه ، كأن بفقد حب أحد الذين يحبهم أو يفقد أحد الأشياء العزيزة عليه والتي يحبها كشيء يمتلكه أو لعبة معينه .. قد يكذب الطفل نتيجة الشعور بالنقص كعملية تعويضية تشعره بشيء من الإرتياح .. ويكذب الطفل أيضاً رغبة منه في السيطرة عسى أن يتخلص من حالة الظلم والقهر التي يعاني منها ، وعندها يدعي على الآخرين أشياء لم تحدث منهم حتى يعرضهم للإيذاء كعملية انتقاميه .

ومن الملاحظ أن الكذب يستغل عادة لتغطية الذنوب والجرائم ، كما أنه يرتبط بظواهر أخرى هي السرقة والغش ، فعندما يتصف الطفل بالكذب فإنه غالباً ما يتصف أيضاً بالسرقه والغش ، لأن هذه الخصال الثلاث تشترك في صفة واحدة هي عدم الأمانه ، حيث أن الكذب هو عدم أمانة في وصف الحقائق ، والسرقة هي عدم أمانة في الممتلكات والغش هو عدم أمانه في القول أو الفعل بشكل عام .

وأهم العوامل التي تساعد الطفل على الكذب أو الإستمرار فيه تقليده للكبار المحيطين به ... وكذلك عدم تناسب العقوبات التي توقع على الطفل مع حجم الذنب الذي ارتكبه ، وقسوة الآباء وسيطرتهم الشديدة على الطفل ، بجانب معاقبته على ذنب اقترفه ثم اعترف به .

هذا وللمدرسه دور هام في إيجاد وتثبيت هذه المشكله ، نظراً للعقوبات الصارمه التي يتعرض لها الطفل من مدرسيه ، وكذلك كثرة الواجبات المنزليه التي تعطى للطفل والتي لا يتمكن من إنجازها .

وعموماً فإن الكذب لا يعتبر عرضاً مرضياً إلا إذا تكرر من الطفل وأصبح

بمثابة العادة ... على أن هناك قواعد عامه يمكن الإسترشاد بها في علاج الكذب لدى الأطفال يمكن عرضها على النحو الآتي :

١ ــ اهتمام كل من الأسرة والمدرسة بغرس فضيلة الصدق وتعميق القيم الدينيه مع التقدير النسبي لظروف الطفل في حالة عدم أداء ما يطلب منه .

٢ ــ التعرف على أسباب الكذب ودوافعه لدى الطفل .

٣ ــ في حالة كذب الطفل يجب ألا نلجأ إلى أساليب التشهير به أو السخرية منه أو ضربه ، بل يجب إقناعه بخطئه وإظهار الإمتعاض لسلوكه .

٤ ــ يجب التعرف على نوع الكذب وهل هو عارض أم متكرر .

٥ ــ ينبغي تجنيب الطفل المواقف التي تشجعه على الكذب كإظهار القسوة في معاملته أو تصيد الأخطاء له .

٦ ــ علينا أن نهيء الجو الذي يساعد على إشباع حاجات الطفل الضرورية مثل الحاجة إلى الأمن والاطمئنان والثقه فيمن حوله .

٧ ــ يجب توفير أوجه النشاط والهوايات التي تتيح الفرصه للطفل للتعبير عن ميوله ومواهبه الحقيقيه دون مبالغة أو تهويل .

٨ ــ تشجيع خيال الطفل عن طريق قراءة الشعر والقصة وغيرها من أنواع الأدب الخيالي ورواية القصص المفيدة له وخاصه تلك التي تبرز فضيلة الصدق .

٩ ــ علينا أن نشجع الطفل على استخدام حواسه في المشاهده ، وعمل التجارب مما يساعد في الدقه في الملاحظة والدقة في التعبير .

١٠ ــ على الآباء ألا يسرفوا في وعود أطفالهم بموقف ما إلا إذ كانوا قادرين على تنفيذ هذه الوعود والوفاء بها .

وينبغي أن يتصف الكبار المحيطون بالطفل بالصدق ، وأن يظهروا إعجابهم واحترامهم للصادقين في أقوالهم وأفعالهم حتى يشب الطفل وهو مشبع بالقيم الحقيقيه لفضيلة الصدق .

وفي هذا امتثال لأوامر ديننا الحنيف الذي يحثنا على فضيلة الصدق حتي يشبوا متمسكين بها وملتزمين بتطبيقها في كل مجالات حياتهم .

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة وقدوة فقد لقب بالصادق لأنه لم يكذب قط حتى قبل بعثته ﷺ حتى أنه كان لا يمزح إلا صدقاً . والله سبحانه وتعالى نسأله أن يجعلنا مع الصادقين من عباده ... إنه سميع مجيب .

* * *

معوقات الطلاق

في سبيل بناء حياة زوجية إسلامية مطمئنة هادئه ، واستمرارها دون نزاع وشقاق فتصرُّع وطلاق ... أرشد المنهج الرباني الحكيم إلى أمور لابد من الأخذ بها ــ وقائية مخافة الوقوع بأُبغض الحلال ، أو علاجٍ حين ظهور بوادر المرض والتصادم في بنية الخليه الأسريه .

أما الأمور الوقائية التي يمكن أن تسد باب الطلاق من أساسه فتتمثل في التوجيهات القرآنيه الحكيمه ، والنبويه الكريمه سواء ما كان منها متعلقاً في كيفية بناء الأسره الإسلامية الصحيحه وشروط هذا البناء السليم ، أم في طرق المعامله والمعاشره بالمعروف ، التي ينبغي أن يمارسها كل من الزوجين ، وأهمها الحقوق والواجبات الزوجيه المتبادله والواجبه بين الزوجين ، وقد سبق شرح كل هذه الأمور في حلقات سابقه بالتفصيل والتفسير والتعليق ، وأكتفي هنا بالتذكير بها ، لنرى مدى أهميتها في إرساء قواعد الأسره والحيلوله دون تصدعها وأهمها ما يلي :

١ ــ الحث على إختيار الزوج الصالح الكفء ذي الدين والخلق ﴿ إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ .

وكذلك اختيار الزوجه الصالحه ذات الدين والخلق « تنكح الإمرأه لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

واعتبار هذا المعيار المعنوي السامي هو المرجع الأول في اختيار الشريك

لآخر ، مع عدم اهمال الشروط الأخرى الموافقه بين الزوجين والمؤديه إلى لتقارب بينهما ، سواء كانت ماديه أو معنوية .

٢ ــ وجوب موافقة ولي أمر المرأة ، مع وجوب موافقتها أيضاً : « لا نكاح لا بولي » لا تنكح الأيم حتي تُستأمد ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن » ... ما في ذلك من أثر في موضوع تقبل ذوي المخطوبه لختنهم وتحديهم عنه وحسن اختياره ولما في ذلك أيضاً حاجه نفسيه في ذات الخطوبه تساعدها على تقبل الزوج المتقدم إليها لتبدأ حياتها الزوجيه برغبه وتشوق .

٣ ــ الإذن برؤية الخاطب للمخطوبه رؤية شرعيه يحول دون وقوع النفور بينهما ويساعد على أن يؤدم بينها « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » ﴿ الأزواج جنود مجنده ؛ فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها أختلف ﴾ .

٤ ــ عدم اشتراط الشروط الماديه الصعبه القاهره من قبل الأهل أو الفتاه مما يجعل الخاطب الراغب أحياناً يستجيب مبدئياً لشروطهم ريثما يصبح زوجاً ذا عصمه وهو يحمل في نفسه ما يحمل من شعور بالإستغلال والظلم ! مما يجعله في بعض الحالات يرد على ذلك كله بمعامله لا ترضى بها الزوجه ولا يقرها الشرع ، فيفتح باباً للخلاف بينها يزداد مع الأيام اتساعاً وتأزماً . وعلى النقيض من ذلك الزيجات القائمه على التيسير والتسامح وعدم التعاسر في الشؤون الماديه ... فهي مع الأيام تزداد نماءاً وبركه وحسن ارتباطه ؛ فأبرك الزواج أقله نفقه .

٥ ــ تعريف كل من الزوجين بحقوقه وواجباته ، مع ممارسة تلك الواجبات ودعوتها لإقامة حدود الله بينها على الوجه الإسلامي الصحيح ... كل ذلك يعتبر أكبر عائق وقائي في وجه ريح الشقاق والفراق ، فإذا عرف كلٌ من الزوجين ما له وما عليه واداه بأمانه ، حال ذلك دون ظهور ما يعوق مسيرة الحياه الزوجيه ، حتى ولو تقاعس الطرف الآخر عن أداء ما عليه من حقوق فإن حكمة الطرف الأول في الإستمرار على المعامله الحسنه ابتغاء مرضاة الله وثوابه الكُبير في الأخره ، وحفاظاً على الزوجيه من الشقاق ، والأسره من التصدع ــ يجعله

يقبل بالتضحيات والتنازلات دون النظر إلى ما لدى شريكه الآخر من تقصيرات !! ويدخل تحت هذا الباب شتى أنواع التوجيه القرآني والنبوي وما مارسه السلف الصالح مما يتعلق بالعشره « وعاشروهن بالمعروف » .

والوصايا النبويه المكثفه بالنساء « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأه خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ؛ فإن أنت ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً » ومن الصبر على النساء في حال الكراهيه وعدم القبول ابتغاء مرضاة الله وثوابه الكبير « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهو شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » مع الحث على التحدي عن صفات حسنه فيهن في هذه الحالة لتغطي الشعور بالكراهية وتعوض عنه « لا يفرك مؤمن مؤمنه ؛ إن كره منها خلقاً رضي آخر » .

ويدخل تحت هذا الباب أيضاً حسن تبعّل المرأة لزوجها وطاعتها له من غير معصية ، وفي تقوى كاملة لله « به وبنفسها وبأولادها » فآيات الطاعه مؤكده وأحاديثها كثيرة ، وكلها تدور حول محور ضرورة طاعة المرأة لزوجها وعظم ثواب ذلك عند الله ثواباً يبلغ درجة المجاهد العامل بما يرضي ربه ، كما نجد في حديث وافدة النساء إلى الرسول ﷺ .

٦ ــ قوامة الرجل : إن كون الرجل قواماً في الأسرة وفق الطريقة التى شرعها الله له يجعل الأسرة في الغالب مركزية الإتجاه شديدة الإستقرار ، بعيدة عن التذبذب بين سلطتين متوازيتين فيما لو اقسم الزوجان سلطة القوامة ، ونائية عن الأهواء الإنفعالية التي يتصف بها سلوك معظم النساء عادة فيما لو كانت بيدهن أمور الحل والعقد .

وقد مر معنا أن للقوامة مستلزمات ، منها وجود العصمه بيد الرجل ، وهذا أمر له أبعاده الخطيره في الحفاظ على الحياة الزوجيه ، إذ أنه يجعل رباط الزوجيه في قبضة شديدة تسيطر عليها حكمة وتعقل في معظم الأحوال ، مما يحول دونها ودون الأهواء والإنفعالات الآنية المعروفة عند غالبية النساء مما يجعلهن يوقعن الطلاق لأتفه الأسباب فيما لو كانت العصمه بأيديهن .

٧ ــ إباحة التعدد في حالات معينه مثل مرضاً مزمناً ، أو عدم إنجابها أو عدم استطاعتها السفر مع زوجها إن كان رحالاً تستدعي طبيعة عمله التجول والتنقل ، يحول دون وقوع الطلاق إن رضيت الزوجة الأولى بزواج زوجها بأخرى ولود أو ذات صحه وقوة تستطيع التنقل معه في حله وسفره .

هذه هي أهم معوقات الطلاق الوقائيه والتي يمكن أن نعتبرها دعائم ترسي قواعد الأسرة وتحول دون تواتر وقوع الطلاق فيها .

المعوقات العلاجيه :

إن المتتبع لمعوقات الطلاق يجد فيها أموراً في غاية الحكمة سواء في حالة ظهور بوادره وعوارضه أو في حالة وقوعه :

أما في حالة ظهور بوادره وعوارضه فنجد معوقات الطلاق تتمثل في اتباع منهج الإسلام الأسري في معالجة الشقاق والنزاع بين الزوجين ، وهذا المنهج يتلخص كما ذكرت في حلقات سابقات :

١ ــ بمعالجة نشوز الزوجه تأديباً من قبل الزوج .

٢ ــ بمعالجة نشوز الزوج بالتصالح والتفاهم بينهما .

٣ ــ في تحكيم الحكمين إذا استفحل الخلاف إلى شقاق قد يؤدي إلى الطلاق .

أما في حالة وقوع الطلاق فهنالك أحكام تتبع ، فيها تعويق يحول دون بتّه نهائياً ، وقد أفاض الفقهاء في شرحها وتبويبها ، فمنها ما يلي :

١ ــ جعل الطلاق على مراحل ثلاث وضمن شروط محدده لا يصح العبث فيها ، وجعله برحصه مقيده لا تمارس إلا في حدود ضيقه ، فهي إنذارات ثلاث يسامح فيها بالأولين ، حيث تتاح الفرص للمراجعه مع قيود وشروط وخسائر مادية ومعنويه ... وينفك فيها رباط الزوجية بينهما بتاتاً في الثالث « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

وعليه فالطلاق من حيث عدد الطلقات نوعان طلاق رجعي وطلاق بائن .

ففي حالة الطلاق الرجعي (وهو ذو الطلقة الواحده أو الطلقتين) نجد أحكاماً تعتبر من العوقات التداركيه التي تحول دون بته نهائياً ، فمن أحكامه عدم خروج المرأة من بيتها وعدم إخراجها بعد وقوع الطلاق ، مع الإنفاق عليها حتي تنتهي العده : وهى ثلاثة أشهر أو ثلاثة قروء (أطهاره ، أو حيضات) « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينه » وهذا يساعد على مارجعة النفوس وإمكانية تعاطف القلوب وعودة المياه إلى مجاريها ، بقول الرجل : أرجعتك إلى عصمتي ، أو بمعاشرتها مثلاً (ما دامت العدة ما تزال قائمه) ولا تشترط موافقة الزوجه على العودة طالما أن العدة لم تنته بعد ، وهذا معوق آخر للطلاق ... وهكذا يرأب الصدع ، ولكن بخسارة تأديبية لكلا الزوجين لابد منها ، وهي احتساب الطلقة عليها مما يقلل بين أيديهما فرص التفكير في الطلاق مرة أخرى .

أما لو انقضت العدة فتخرج من بيته وتبين منه بينونه صغرى ولا يستطيع الرجوع إليها إلا بعقد جديد ومهر جديد (خسائر جديده) ويشترط موافقتها طالما أن العقد السابق قد نقض ، ولا تشترط موافقة أهلها ، ولا يجوز عضلها طالما أنها عرفت زوجها وجربته ووافقت على الرجوع إليه ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴾ وتحتسب الطلقة أيضاً هنا ، وكل هذه الأحكام في الطلاق الرجعي تعتبر من معوقات استمرارية الطلاق وبتّه ، وما سمي الطلاق الرجعي رجعياً إلا لإمكان الرجعة فيه .

أما في الطلاق البائن بينونه كبرى (وهو ذو الطلقات الثلاث) فالأحكام هنا زاجرة مانعة تقصم ظهر الحياة الزوجيه وشطرها شقين ، إذ تخرج فيه المطلقه من بيت زوجها بمجرد نطقه بالطلاق حيث تحرم عليه ، وتبين منه بينونه كبرى ، ولا يجوز له إرجاعها إلا إذا حصل أن تزوجت غيره ثم طلقت منه ، وأراد زوجها الأول الزواج منها مرة أخرى ، وفي هذا جرح كبير لكرامة المطلق ، كما أن فيه ردعاً كبيراً لكلا الزوجين لتحاشي الوقوع في مغبة الطلقة الثالثه التي لا رجعة فيها .

٢ ـــ جعل الطلاق السين لا يمارس إلا في طهر لم يمسها فيه أو على مرات ثلاث ، ضيق الفرص جداً لإيقاع الطلاق إذ أن إيقاع الطلاق في غير هذه المده التي تعتبر مدة ضيقه جداً وحرجه يعتبر طلاقاً بدعياً ، وتضييق الخناق على مدة الطلاق المسموح بها إلى هذا الحد الزمني (مدة طهر لم يمسها فيه) قد تجعل المقدم على الطلاق يثني العزم عما كان قد قرره في مدة سابقه ، في انتظار مدة الطهر التي لم يمسها فيه .

كما أن ضرورة جعل الطلاق على مرات ثلاث يتيح الفرص لكلا الطرفين لمراجعة النفس وإعادة الحسابات من جديد وبالتالي عدم التفكير بالطلاق جدياً

٣ ـــ وجود التزامات ماديه على الزوج بعد وقوع الطلاق يجعله يتراجع قبل اتخاذ هذه الخطوه الفاصله إذ أن على الزوج في حال الطلاق خساره كل ما تقدم به من مهد وهدايا ونفقة طلاق وتمتع وخلافه ... لزوجه ، كل ذلك من خسائر ينوء بحملها الشباب في أيام غلت فيها المعيشه وعز على الشباب الزواج ، ويقابل هذه الخسارة الماديه ما تفدي به المرأه نفسها في حال المخالعه وطلبها الطلاق ، إذ ترد له كل ما أخذت إن لم يكن أكثر ، ولا يخفى ما لهذا ردع للطلاق .

٤ ـــ الخسائر المعنوية التي يمنى بها الزوجان في حال الطلاق تعتبر من أشد المعوقات في وجه الطلاق ، فمع تصدع الأسرة والإنشقاق الزوجي تتمزق بنية الأسرة وتضيع الذراري إذ تتفاذ فهم نزعات الحنين إلى الأب في مرحلة الحضانة ، والتشوق والحسرة على الأم بعد مرحلة الحضانه ، وفي كلا الحالين يعيش الأطفال إزدواجية في عواطفهم وولائهم تتقاذفهم أهواء شتى وصراع يعتبر من أشد أنواع الصراع لكونه بين مرغوب ومرغوب وليس في يدهم حيلة دونه ، ويبدو خطورة ذلك إذا علمنا أن كثيراً ن ينزلقون في متاهات الموبقات والجرائم أفرزتهم أسر ممزقه ، يضاف إلى ذلك ما يعانيه الأب من فقد لعش الزوجيه والسكن النفسي بفقد زوجه وولده حتى تنتهي مدة الحضانه ، بالإضافة إلى خسائره الماديه التي يتحمل العبء فيها منفرداً ، فهي خسائر ذات أوجه

متعدده ... وكذلك ماتختبر مرارته الأم حينما تخرج من مملكتها لتقع فريسة الندامه والحسرة في وحده قاتله بعد أخذ أولادها منها حين انتهاء مدة الحضانه ، أو لتقع بين شقي رحى فيما لو تزوجت بآخر وبقي قلبها مشتتاً موزعاً بين أطراف متناثره لا سبيل إلى الجمع بينها .

ومن معوقات الطلاق أيضاً كفارتا الإيلاء بعد مضى أربعة أشهر من إيلائه حال دون طلب زوجته الطلاق على يد القاضي رفعاً للضرر .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الظهار ، فمن قدم كفارته استطاع تفادي الطلاق واستطاع العوده إلى زوجه ، وهذا كله من نعم الله على المسلمين في الحفاظ على الأسرة المسلمة .

من كل ما تقدم نجد حكمة اللطيف الخبير في تضييق مساحة رخصة الطلاق وتحديد منافذها بأحكام شرعيه ذات شروط ماديه ومعنويه تجعل المقبل عليه أو المطالب به لا يتخذ قراره إلّا بعد تفكير ودراية وتبصر في عاقبته وعاقبة أسرته أولاده .



شريعة تعدد الزوجات في الإسلام

جاء الإسلام نظاماً ربانياً شاملاً متوازناً مفصلاً حسبما تقتضيه فطرة الفرد ، والمصلحة الحقيقيه للجماعه ، وحين بزوغ فجر الإسلام كان الظلم قد استشرى في المجتمعات من حوله أفراداً وجماعات ، لبعدها عن منهج الله ، وقد نالت منه المرأه أوفى نصيب من ظلم وغمط حقوق ، وكان تعدد الزوجات تحت الرجل الواحد لاحد له ولا ضابط يضبطه ... يؤوى الرجل إليه من يشاء ، ويطلق كيفما ومتى يشاء ، ويؤثر من يشاء ويهين من يشاء ، دون حسيب أو رقيب . وقد روت كتب السنه كيف كان للرجل العشر والثماني والنحمس من النساء ، فكان لكل منهم حسب هواه ، فجاء الإسلام ليضع الأمور في نصابها الحقيقي ، فأباح وحدد وقيد .

أباح التعدد لما فيه من مصالح فرديه واجتماعيه لا يعرفها إلا ذوو البصائر النافذه الذين يدركون أنه لولا هذه الرخصه في نظام الأسرة المسلمه لحدث في المجتمع الخلل وعدم التوازن ، علماً بأن التعدد كان مباحاً دون حدود عند اليهود والنصارى ، دلت على ذلك سيرة أنبيائهم عليهم السلام وكتبهم فكان لإبراهيم عليه السلام ساره (أم إسحاق) وهاجر (أم إسماعيل) عليهما السلام ، وكان ليعقوب عليه السلام أربع زوجات : شقيقتان وجاريتاهما ، هن أمهات أولاده الإثني عشر ، وهم أجداد أسباط بني إسرائيل ، وكان لداوود عليه السلام عدة زوجات منهن زوجتان جاء ذكرهما في الإحاح الثاني عشر من (سفر صموئيل الثاني) ، أما سليمان عليه السلام فقد جاء في الإصحاح (١١) من سفر الملوك الأول أنه كانت له زوجات وهن (٧٠٠) سيدات و (٣٠٠)

سراري . وفي سفر (التثنيه) في الإصحاح الحادي والعشرين منه ، نص صريح يبيح التعدد وفيه ما يلي :

[١٥ ــ إذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبه والأخرى مكروهه فولدتا له بنين ، المحبوبه والمكروهه . فإن كان الإبن البكر للمكروهه ، ١٦ ــ فيوم يقسم لبنيه ما كان له ، لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبه بكراً على ابن المكروهه البكر ، ١٧ ــ بل يعرف ابن المكروهه بكراً ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته ، له حق البكوريه] .

واستمر تعدد الزوجات في بني إسرائيل ورسالة عيسى عليه السلام حتى جاء منع التعدد تحريفاً كنسياً في النصرانيه أدخله (بولس) في رسائله ، كما جاء في الرساله الأولى إلى أهل (كورنثوث) (الإصحاح السابع) . ويكفي أن نعرف أن بولس هذا الذي يعتبر محرف النصرانيه الأكبر كان يهودياً وعدواً للمسيح عليه السلام ولم يقابله قط ! وكان يحارب أتباعه وتلامذته ومن ثم دخل النصرانيه نفاقاً وأفسد فيها ما أفسد بمكر يهودي ... ثم أن الكنيسة عادت مؤخراً فأذنت بالتعدد للأفارقة المتنصرين فقط ضمن حملات التنصير المستشريه بينهم لتصرفهم عن الإسلام ، متلاعبه بالنصوص حسب أهوائها .

فالإسلام إذاً لم يكن بدعاً في التعدد بل كان بدعاً في التحديد للعدد ، إذ جعل أقصاه أربع زوجات كما جاء في الآيه الثالثه من سورة النساء ﴿ وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعدلوا ﴾ . وكما ورد عن الرسول ﷺ حينما أمر من كانت عنده أكثر من أربع زوجات أن يطلق ما زاد على هذا العدد ويبقي على أربعٍ فقط ، والأحاديث في ذلك واضحه وصريحه يضيق المقام عن ذكرها .

وقد قيد هذا التعدد المحدود بشرط العدل بين النساء ومخافة الوقوع في الجور وإلا فواحده . والمتدبر لهذه الآيه يجد فيها تكراراً في التأكيد على إقامة العدل ومنع الجور والظلم : ففي مطلعها ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴾

توجيه نحو الإقساط في اليتامى ، والإقساط لغه : الإنصاف والعدل ، وهو عكس القسوط : وهو الظلم والحيف . وقد نزلت هذه الآية ــ كما روت السيده عائشه رضي الله عنها ــ للتأكيد على المحافظه على حقوق اليتامى لا سيما البنات منهن حين يكنَّ في حجر أوليائهن ــ ممن يجوز لهم الزواج منهن ــ ويرغبون في نكاحهن طمعاً بمالهن أو بمالهن أو طمعاً بعدم إعطائهن مهر المثل ، فجاءت هذه الآيه لتوجه أولياء اليتامى نحو نكاح غيرهن من النساء اللواتي لسن تحت ولايتهم وهن كثيرات ، شريطة ألا يتجاوز عددهن أربع زوجات في وقت واحد ، مع توجيه نحو إقامة العدل وذلك بالتسوية بينهن بالقسمه والنفقه والتعهد والمؤانسه والمعاشره والقيام بواجبات الزوجيه وغير ذلك من أمور يملك الإنسان ضبطها والعدل فيها ، إلا أمور القلب والمشاعر فهذه بيد الرحمٰن . وقد جاء عن السيده عائشه رضي الله عنها قولها : (كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : « هذه قسمتي » ثم يقول : « اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك ») .

ومن خاف الوقوع في الجور والظلم بينهن فعليه بالواحده (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحده ...) ثم جاءت خاتمة الآيه لتؤكد معنى العدل مره ثالثه في قوله تعالى ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ والعول معناه الميل في الحكم إلى الجور : (عال يعول عولاً ، جار ومال عن الحق) ... ومنهم من يقول أن العول : هو الفقر وكثرة العيال ــ كما عند الشافعي . والجمهور على أنها تعني الجور والميل ، والإمام ابن القيم قد رجح هذا المعنى . ولا تعارض في الأخذ بالمغيبين والله أعلم .

ويكون هذا من استعمال اللفظ الواحد بمعنييه كما ذهب إلى ذلك كبار الأئمة ومنهم الشافعي ومالك .

وهكذا نستنتج أن سياق الآيه كله يدور حول محور العدل ، العدل في اختيار الزوجات من غير اليتيمات المكفولات والعدل في التعدد ، والعدل في المعاملة ،

وفي كل ما يدور حول هذا الموضوع خوفاً من نزعات الشيطان وغفلات وكبوات وأهواء النفس الإنسانيه .

ثم يبين القرآن الكريم مرة أخرى مسؤولية العدل بين النساء في معرض الإستفتاء ، في النساء وبعد اية معالجة نشوز الزوج بقوله تعالى :

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا

[النساء: ١٢٩]

وفي هذا تنبيه مرة أخرى على أن واجب العدل بين النساء ليس بالأمر الهين ، لذا فقد حذر من مغبة المبالغة في الميل للثانيه ، وترك الأولى كالمعلقه فلا هي ذات بعل ولا هي مطلقه ! مع استثارة عوامل التقوى والصلاح والرحمة في النفس وطلب الغفران . وقد روى أصحاب السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قوله : « من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

بعد بيان إباحة التعدد مع ما فيه من تحفظ وحدود وقيود ، لابد من بيان الحكمة من هذه الرخصة وبيان فوائدها للفرد والمجتمع ــ وما جاءت الشرائع الربانيه إلا لإسعادهما معاً .

فبالنسبة إلى بعض الأفراد يعتبر التعدد ضرورة لا مندوحة منها ، فهنالك نماذج من الرجال لا تكفيهم ، ولا تعفهم زوجة واحدة ، فتمتد أعينهم إلى غيرهن فيتركون الحليلة إلى الخليلة ... ويستبدلون الحرام بالحلال ، وهذا ما نراه شائعاً وطبيعياً عند الكثيرين في بلاد الغرب والشرق ، حتى إن بعضهم يمارسه بدافع العادة والإلف السائد دونما حاجة اضطرارية لذلك !

وبالطبع فإن هذا المبدأ الأعوج والتطبيق القذر الأهوج لا يحول دون أن تمارس زوجته اللعبة ذاتها وبالقذارة ذاتها متذرعة بالمبدأ نفسه ، وتنتشر الفاحشة وتضيع الأنساب ، ويكثر اللقطاء ويعم الفساد ، ويلجأ الناس من شرور أنفسهم

وسيئات أعمالهم إلى العيادات النفسيه والمخدرات والمسكرات والإنتحار ... حتى أمست هذه الظواهر صفات متلازمه للمجتمعات التي تدعى بالمتحضره والتي تملك أعلى دخل مرتفع كالبلاد ، الاسكندنافيه وا شابهها .

كما أن بعض الرجال يضن بزوجته المسقام ـــ الكثيرة الأمراض ـــ أو العقيم من أن يطلقها ، فيأتي التعدد هنا كحل معقول لا يظلم فيه الزوج مع زوجة لا تستطيع القيام بواجباتها الزوجيه ، أو مع زوجة عقيم ، ولا نظلم فيه الزوجة بطلاقها ، والرغبون فيها ـــ وهي على هذه الحال ـــ نادرون .

وكذلك الأمر إذا كان الرجل كثير الأسفار والترحال ولا تستطيع زوجته السفر معه محافظة على الأولاد ، فإن سافرت معه ضيعت أولادهما ، وإن بقيت مع أولادها عرضت زوجها للفتنة التى لا يعصمه منها إلا زوجة أخرى ، وقد سبق أن ذكرت هذا في مقال سابق ضمن أحد معوقات الطلاق .

أما بالنسبة إلى قطاع خاص في الفتيات في المجتمع ممن فقدن المعيل أو السند أو ممن رغب عنها الرجال لكبر سنها أو قلة حسنها ، فإن التعدد بالنسبة إلى هذا الفريق من النساء يعتبر الحل الناجح الذي يعصم من الإنزلاق في دروب الرذيلة إن لم تجد إحداهن حاجتها في رجل يؤنس وحشتها ويرضي حاجاتها ويحمي ضعفها .

أما بالنسبة إلى المجتمع فإننا نجد أن التعدد إذا ما طبق حين الحاجة بوجهه الإسلامي المشروع فإنه يحول دون انتشار الفساد والرذيلة في المجتمعات ، كما يحول دون انتشار النفاق الزوجي والإزدواجية في السلوك فيمن يبطن الفسق والفجور ويظهر العفة والإخلاص لزوجه ! كما يمنع وجود اللقطاء الذين تستولدهم مجتمعات الخنا والفحش ، والذين يصبحون بؤر فسادٍ ومصدر شقاء واضطراب لأنفسهم ومن حولهم ... فالمجتمع لا يكون عفيفاً إلا بنظافة وعفاف أسرة وأفرادها ، والتعدد أحد العوامل التي تساعد على نظافة وطهارة المجتمعات .

يضاف إلى ذلك ضرورات اقتصادية واجتماعيه وحربيه تحتم على المجتمعات إباحة التعدد ، كما يحدث في الأمم التي تفقد رجالها في الحروب فتفقد بالتالي التوازن ما بين أعداد الذكور وأعداد الإناث فيها . ولا يدل سد هذه الثغرات ويعيد توازن بنائها السكاني ويحفظها من مفساد الأيامى والفتيات الزائدات على تعدد الذكور إلا التعدد المشروع الذى يهيىء لهؤلاء النساء نعمة الزوجيه ونعمة الإنجاب المشروع العفيف ونعمة الأمومة وينتج الذراري المشروعة التي تعيد بناء الأمة .

وقد أوصى مؤتمر الشباب العالمي في (ميونيخ) في ألمانيا ـــ عام ١٩٤٨م ، في أثر الحرب العالميه الثانيه ـــ بإباحة تعدد الزوجات تفادياً لمشكلة تكاثر النساء وقلة الرجال .

وما يقال في حال الكوارث والحروب يقال في حال المجتمعات التي تعاني من نقص في المواليد وقلة في كثافة سكانها مما يضعف شوكتها ويطمع فيها جيراها ، فمن العوامل التي تساعد على بناء قوتها رفع نسبة الكثافة البشرية على أرضها والتي يمكن تحصيلها عن طريق عدم تحديد النسل ، وعن طريق التعدد إن زاد عدد الإناث على الذكور ، أو كثر الأيامى ، ولا سيما وإن عمر إخصاب المرأة محدود دون الخمسين بينما يمتد إخصاب الرجل إلى مرحلة متأخرة من العمر ، كما أن نسبة النساء تتعرض إلى زيادة على نسبة الرجال في ظروف حيانيه وكفاحيه مختلفه ... يضاف إلى ذلك أن النساء في الغالب أطول أعماراً من الرجال ... كل هذا يستدعي التفكير في كفالة النساء اللواتي يكثر عددهن على عدد الرجال وليس هنالك حل أنسب من التعدد المشروع .

وقبل التساؤل هنا عن الزوجة السابقه ودورها ومدى تقبلها لمبدأ التعدد ننوه ابتداءاً أنه بمقدور المتضررة طلب الطلاق ، إذ يحق لها ذلك فيما لو شعرت أنها لا تطيق الوضع الجديد ، أو أنها قد أصبحت كالمعلقه ، والشرع لا يجبرها على البقاء . أما لو فكرت بعقلها واستخدمت قوة إرادتها ورضيت بقضاء الله وقدرة إيماناً واحتساباً وتعايشن مع واقعها الجديد فتكون قد حافظت على بيتها

وكيانها وزوجها وأولادها إذا كانت ذات ولد ... ولاشك أن وضعها شريكة لغيرها في بيتها ــ بيت الزوجيه ــ أفضل ألف مره من خروجها منه ووحدتها ومفارقتها لإلفها وولدها وحياتها السابقه ، ولا أظن أن امرأة مؤمنه تستنير بعقلها ــ لا بعاطفها ــ ترى غير ذلك لا سيما إذا عرفت ما لها من ثواب كبير بصبرها على ما امتحنها الله من ابتلاء ، فحاولت تحويل وتصعيد غيرتها ورغبتها في الإستئثار بزوجها إلى الدار الآخره وما فيها من نعيم مقيم وأجر عظيم .

واساؤوا استخدامها وأوقعوا الظلم والمهانة بزوجاتهم السابقات وبأولادهم فإن العيب والنقص ليس في نظام الإسلام وإنما فيما يستغل رخص الإسلام ومباحاته فيما حرم الله . ولا نستطيع رفض مبدأ التعدد ــ وهو تشريع رباني ــ لجور بعضهم ، تماماً كما أننا لا نستطيع رفض قوانين السير عند الإشارة الخضراء والوقوف عند الحمراء لأن بعض السائقين يتجاوزون الإشارة وهي حمراء ! فالمشكلة ليست في إشارات المرور التي ما وضعت إلا لتسهيل المرور ، بل فيمن يسيء استخدامها فيوقع الأذى بنفسه وبغيره ... ولا شك أن من يجور في التعدد يكون جائراً في كافة سلوكه ، بعيداً عن منهج الإسلام ... فقد تراه غير مخلص في عمله وقد تراه يأكل أموال الناس بالباطل ، وقد يكون من الذين لا يؤدون حقوق ربهم ولا يعرفون من سنة الله ورسوله إلا قولهم : ﴿ لقد عددت على سنه الله ورسوله ﴾ إلى غير ذلك من أمور فيها من الظلم ما يفوق ظلمه لزوجاته ، فالمشكلة إذا ليست في التعدد وإنما سلوكهم غير الإسلامي الذي يون فيه الظلم ــ استخدام رخصة التعدد ــ فيه جزئيه من جزئياته .

هذا وقد ظهرت دعوات وآراء فيها ما فيها من تعديل لشرع الله أو التشكيك فيه أو رفضه البته . فمن النوع الأول ظهرت الدعوه إلى منع التعدد إلا بإذن القاضي ليتأكد من شرط العدل والإنفاق . وهذا أمر مناف للمقصود من الآية ومناف للطبائع البشريه ، فالزوج هو الذي يقدر العدل ويطبقه ، ولا يعلم السرائر إلا الله ... ثم إن في تدخل القاضي تعدياً على الحريات الشخصية وأسرار الحياة

الزوجيه التي أراد الله أن تكون ميثاقاً غليظاً ولباساً ساتراً لا يهتك سره .

والأنكى أن هنالك من وضع القوانين الوضعية التي تحرم ما أحل الله في التعدد ومن المضحك المبكي في بعض البلاد أن القانون يعاقب الذي يعدد إن كانت حليله ولا يعاقبه إن كانت خليله !! ولنا أن نتصور مدى ظلم الإنسان لنفسه ومجتمعه حينما ينصب نفسه مشرعاً .

ثم هناك دعوه مارقه تشكك في أحكام الإسلام بزعم التساوي بين الرجل والمرأه تدعي أنه إذا كان الرجل يعدد الزوجات فلم لا تعدد المرأه الأزواج ؟ وقد تولى كبرها مشككون من أعداد الإسلام من صليبين (مستشرقين ومظللين) ويهود وغيرهم ، وتبعهم في ذلك المظللون من تلامذتهم في ذراري المسلمين الذين رضعوا سموم الغزو الفكري ، بل ذهبوا أو ذهبن إلى أنكى من ذلك إذ عقدن ــ وهن عربيات من بنات المسلمين ــ في نيروبي عاصمة كينيا مؤتمراً عام ١٩٨٩م حوّلته هيئات كنيسه عالميه تحت راية جمعية تسمي نفسها (تضامن المرأة العربيه) وطالبن بأمور فقن فيا أسيادهن مكراً إذ نادين بتعدد الأزواج ونسبة الولد إلى أمه ... إلى غير ذلك من ترهات ... وموضوع المناداه بتعدد الأزواج أسخف من أن يناقش لأنه ــ مع مافيه من انقلاب للموازين وتنافس وتزاحم ين الشركاء واختلاط للأنساب قد يصل إلى تنكر الجميع للذريه المختلطه المنجبه بحجة أنهم ليسوا أبناءهم ــ فإن فيه همجيه لا تطبقها حتى شريعة الغاب ، إذ نجد الوحوش الضاريه تعيش أسراً يحافظ الذكر على كل منها مستميتاً في الدفاع عنها .

كما نقول لهن إسألن أساتذتكن ممن زرعوا في عروقكن هذه السموم : هل وجدوا مثل ذلك في التوراة والإنجيل ؟ أم هل صاغوه من قوانين بلادهم التي تتبعونها حذو القذة بالقذه بإمعية وعصبية لا عقل يسوسها ولا وازع دينياً يردعها ؟ .

* * *

التوجيه القرآني لمعالجة نشوز الزوج

فطرت النفوس على التغيير وفطرت القلوب على التقلب وقد أقام الله تعالى (الزوجية البشريه) بغية سكنها وإسعادها على أساس المودة والرحمه المتبادلة بين الزوجين فخط بذلك المنهج الأمثل لأسمى علاقه زوجية بين البشر .

وإن منهاج الإسلام الكامل الشامل الذي تضمن نظام الأسرة المسلمه في أرقى وأجمل صوره لم يغفل ذكر الوسائل التي ينبغي اتخاذها في حالة بدء نضوب منبعي المودة والرحمه بين الزوجين وبالتالي ظهور التصدع في الأسرة ... سواء أكان مجرد بوادر أو إمارات أو إذا استفحل إلى درجة المشاقه وسوء الخلافات ـــ فرسم في منهجيته الواقعيه الطرق التي يجب اتخاذها في حال ظهور بوادر النشوز من قبل الزوجه أو من قبل الزوج أو من كليهما معاً حينما يتطور إلى شقاق يستدعي تدخل الآخرين أو إلى طلاق وفراق .

وبعد معالجة النشوز من قبل الزوجه ثم من كليهما معاً لابد من البحث والنظر في نشوز الزوج وترفعه عن زوجته ومعالجة ذلك اهتداء بكتاب الله وسنة رسوله وأسوة بالسلف الصالح .

﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾

[النساء آية ١٢٨]

تعتبر هذه الآية من جملة ما أخبر الله جلت حكمته في تقوى النساء أخذاً من الآيه التي قبلها ﴿ ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم ﴾ [١٢٧] والفتوى في آية النشوز هذه تتضمن الطريق الذي يجب أن تسلكه المرأه بالإتفاق مع زوجها حفاظاً منها على بقاء رباط الزوجيه واستمرار الأسريه بينهما وبين أولادهما في حالة نشوز الزوج أو إعراضه عنها .

ويستحسن في علاج هذه المشكله قبل اللجوء إلى المصارحه من قبل الزوجه ومن ثم المصالحه من قبلهما أن تراجع المرأة نفسها في حال ظهور بوادر النشوز أو الإعراض ن قبل زوجها ، لا سيما إذا كانت لا تزال مقبولة شكلاً وعمراً وطيب نفس ... فقد تكون هي وراء ذلك بسبب تغير في معاملتها أو سوء في خلقها أو تقاعس عن أداء واجباتها ... وفي محاسبة النفس بتجرد وأمانه وتقوى الله تتكشف للإنسان أمور كثيره يكون عنها متنكباً إن كانت خيراً ومرتكباً إن كانت شراً ... وبالتالي يمكنه القيام بها أو تفاديها لتعود المياه إلى مجاريها . وعلى المرأه معالجة الموقف ودراسته من كافة الوجوه واستعمال ذكائها وحكمتها في ذلك ... بحثاً عن مصلحتها الحقيقيه . وتخطىء الكثيرات من الجاهلات ممن يلمسن تغيراً في معاملة أزواجهن في الإعتقاد أنه على حد تعبيرهن (هنالك من عمل له عملاً) يقصدن (سحراً) ويقمن بمعالجة الموضوع بأسلوب غيبي غبي ... لا يقره العقل السليم ولا الشرع القويم ... وحبذا لو عرف هذا الصنف من النساء أنه إن كان هنالك (عمل) قد عمل لزوج إحداهن فقد يكون من كسبها وسوء تصرفها ممايؤدي إلى نفوره منها ... وأن اللجوء إلى السحر والشعوذه لا يزيد الأمر إلا تعقيداً والنشوز إلا شقاقاً بالإضافة إلى حرمتها الكبرى .

﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾ .

والخوف لا يكون إلا بظهور بوادر وإمارات تنذر بعاقبة ما يخاف الإنسان من أجله فخوف المرأة هنا من بعلها مبني على بوادر قد تؤدي إلى نشوز عنها وترفع وسوء عشره وعدم لين في قول ... أو رقه في سلوك ... وقد يرافقه عبوس

وتقطيب وتغير جذري في المعامله قد يتطور إلى عدم مؤانستها ومعاشرتها ... أما في حال الإعراض وهو أخف درجة من النشوز فتبدو أعراضه بالسكوت عن الخير والشر والجفوه والتذمر من الصغائر مع تجاهل وعدم مبالاه . فإذا ظهرت هذه العوارض على بنية الحياة الزوجية . وأفلست المرأة في إصلاح ذات البين من قبلها وطريقتها غير المباشره فبإمكانها أن تضع حداً لهذه المعاناة بالمصارحه والمصالحة بينها وبين زوجها لا سيما إذا لمست بحاستها الأنثويه أن زوجها قد لوى بعنان فرسه منصرفاً عنها ... أو أنها لم يعد لها في قلبه متسع ... أو لنفوره من متبجحها أو كبر سنها أو غير ذلك من أمور لا تشجع على استمرار حياة زوجيه سعيدة بينهما .

وللنشوز والإعراض أحوال كثيره ... تزداد شدة وضعفاً وتختلف عواقبها باختلاف الأشخاص والحالات وأحوال النفس عند الشخص نفسه ! .

وقد ذكر المفسرون آراء كثيره في تفسير النشوز والإعراض وسبب نزول هذه الآيه ، منها ما ورد في صحيح البخاري عن السيده عائشه قالت في قوله تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً ﴾ قالت : الرجل يكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول له : أجعلك من شأني في حل ، فنزلت هذه الآيه . وعن ابن عباس قال : خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا تطلقني واجعل يومي لعائشه ففعل ونزلت هذه الآيه ... وهنالك روايات كثيره في هذا المعنى ... وكل هذه التفاسير والمناسبات تدور حول محور واحد وهو نفور الرجل من امرأته أو إيثاره غيرها عليها لسبب من الأسباب وظهور إمارات محاوله فراق من قبل الزوج .

قوله : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ﴾ (يصلحا) قراءة الكوفيين وقراءة جمهور القراء (يصّالحا) فعلى قراءة الكوفيين (أن يصلحا) فيكون المعنى أن يعمل كل منهما من جهته لإصلاح ما فسد من وشائج الروابط الزوجيه بينهما . وعلى قراءة الجمهور (أن يصّالحا) معناه أن يتوافقا على أمور تؤدي إلى التصالح بينهما ، ولو كان ذلك استجابة لرغبات

وسطاء الخير إن وجدوا ... والقرآن يحث بالقراءتين على كلا الأمرين . وفي كلتا القراءتين نجد أن في الأمر فسحة للزوجين فيها شيء من التضحيه والتنازلات حفاظاً على رباط الزوجيه وخوفاً من تصدع الأسرة . وغالباً ما تقوم الزوجه بأخذ زمام المبادرة في عرض بنود المصالحة على زوجها إذا شعرت أن جو الأسرة قد أصبح ملبداً بغيوم النشوز والنزاع ، وأن صاعقة الطلاق قد تحل عند أي احتكاك . والصلح هذا فيه حفاظ على الأسرة وفيه تضحيه وتحمل وتجمل وخير لكلا الطرفين بالإضافة إلى أنه لا إثم فيه ولا حرج ، أخذاً من قوله تعالى ﴿ فلا جناح ﴾ وهو قائم على اتفاق وتراضٍ بين الطرفين لذا فهو يحوي في طياته خيراً عظيماً (والصلح خير) وكيف لا يكون خيراً وبديله إما التصدع والطلاق ، أو الإبقاء على حياة نكده تنمو فيها أشواك النشوز والإعراض وقد ذكر المفسرون مؤكدات ثلاثه تبين شدة الترغيب في هذا الصلح وهي : المصدر المؤكد في قوله (صلحاً) والإظهار في مقام الإضمار في قوله (والصلح خير) والإخبار عنه بالمصدر أو بالصفه المشبهه التي تدل على فعل سبحيه .

(وأحضرت الأنفس الشح) صورة من صور القرآن البيانية الموجزه البلغيه تصور لنا في كلمات ثلاث موقفاً من مواقف البخل المبالغ فيه والذي فيه إفراط في الحرص على الشيء ، لا سيما حينما يكون هذا الشيء مشتركاً بين اثنين مما يظهر صورة الشح في أقصى شدتها . ومعنى وأحضرت الأنفس الشح : ملازمة الشح للنفوس البشريه حتى كأنه حاضر لديها وخاصه من خصائصها ، وقد بُني الفعل للمجهول لكونه من أفعال الجبلين على طريق العرب في بناء كل فعل غير معلوم الفاعل للمجهول وأصل الشح البخل الشديد بالمال ويطلق على حرص النفس على الحقوق وقلة التسامح فيها ومنه المشاحه وعكسه السماحه .

وعليه يكون الشح هنا ذا شقين مادي ومعنوي . شح بالمال وشح بالعواطف والمشاعر . وقد عزا بعض المفسرين الشح للمرأة في التنازل عن نفقتها أو مهرها أو بعض مالها أو أيامها مقابل أن يبقي عليها زوجها . وقال أخرون : معنى ذلك وأحضرت نفس كل واحد من الرجل والمرأة الشح بحقه قبل صاحبه ، فلا تطيب نفسه أن يعطيها شيئاً فتحلله ، ولا تطيب نفسها أن تعطيه شيئاً من مالها فتعطفه

عليها ، ويبدو ــ والله أعلم ــ من صريح الآية أن الشح الملازم للنفس البشرية قد يظهر في شح المرأة ببذل نصيبها وحقها من زوجها كله أو جزء منه مقابل الإبقاء عليها ، وقد يظهر في شح الزوج خوفاً من قضاء عمره مع من لا يكّن لها ميلاً أو موده ، ومشاححته بالمطالبه بأقصى ما يمكن من التنازلات الماديه ، أو المعنويه من قبل زوجته ، ولا يخفى ما لذلك كله من مغالبة للعقبات الصادة للنفس الشحيحة التي رغب الله بتجاوزها بقوله :

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ آية (٩) الحشر .

قوله تعالى : ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ فيه توجيه رباني حكيم لكلا الطرفين الرجل والمرأة . فهو للزوج ابتداء بتوجيهه نحو اجتناب فكرة الطلاق وإبقائه على زوجه حتى ولو على حساب مشاعره لما في ذلك في خير عاجل بالمحافظة على بيت الزوجية من التصدع وما يجره وراءه من شرور ومشكلات ، ومن خير آجل في ثواب الله في الآخرة لصبره وتحمله وتجمله وعشيرته بالمعروف ؛ التي أمره الله بها بقوله :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء ١٩] .

فقد يكون هذا الخير الكثير بأن يرزقه الله ذرية صالحة منها وقد يكون بالثواب العظيم بصبره عليها .

وفي توجيهات الرسول الكريم نجد علاجاً تحويلياً لمن تغشى نفسه سحابة الملل أو الكره لزوجه بتوجيه الرجل للبحث عن صفات وخلق آخر محمود لديها فيما لو كره منها خلقاً أو صفه ، مما يجعله يرضى بواقعه مقتنعاً بأن الكمال لله وحده ، وأن كثيراً من الناس لهم من المحاسن ما يفوق عيوبهم فيما لو بحث كل منتقد لهم عنها ، ومن ذلك قول الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة

والتسليم : « ولا يَفْرِكْ (يبغض) مؤمن مؤمنه ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » رواه الشيخان . وبهذا يتحول البغض والكراهية إلى رضى وقبول .

فالأمر إذاً بالنسبة للرجال فيه ترغيب بحسن المعامله والصبر والمعاشرة بالمعروف واتقاء النشوز والإعراض والإحسان بالأفعال والأقوال وترك الجور والتعنت والمماحكه لما في ذلك من أجر عظيم من الله العليم الخبير بنواياهم وما تنطوي عليه نفوسهم لا سيما فيما يتعلق بالمفاوضات والمفاوضات والشح بالمال والمشاحة بالحقوق إبقاء على الأسرة وعلى عشرة الزوجه ... أم الولد ... ورفيقة العمر ...

والأمر بالإحسان والتقوى أيضاً موجه إلى الزوجه التي ينشز عنها زوجها بأن ترضى ببعض التنازلات المادية أو المعنويه محافظة على رباط الزوجيه واستقرار الأسرة لا سيما إذا كان بينهما أولاد ، وتحتسب ذلك عند الله العالم بما في الصدور .

ووقوفاً عند هذه الآية الكريمة التي تحل مشكلة من المشكلات الزوجيه يمكننا أن تستنبط ما يلي :

أولاً : مع ما في الآيه من واقعيه وتوجيه نحو إيجاد الحل المناسب للطرفين المتنازعين فإن فيها توجيهاً ضمنياً نحو الإصلاح وتقرير الخير والإحسان وتجنب النشوز قدر الإمكان والحث على الصبر وعدم الإضرار لا سيما من قبل الرجال والتساهل وعدم المشاحة في المصالحة والإتفاق على بعض التنازلات لدى الطرفين حفاظاً على رباط الزوجية وطلباً للأجر من الله العليم الخبير ، فمن شاء كان مقلاً ومن شاء كان مكثراً .

ثانياً : إن في الإذن بهذه المصالحة والإتفاق ما بين الزوجين إجازه ربانيه تعتبر من معوقات الطلاق يستطيع فيها الزوجان المفاوضة والإتفاق والمعاوضه كل بملء حريته ورغبته دون إلزام لأحدهما بما لا يرى فيه مصلحة له ولأسرته .

وهنا لابد من التنبيه على أن لا يجوز للرجل أن يستغل هذه الإجازة الربانيه

بأن يطظنع النشوز ويجعله سلاحاً يهدد به المرأه وأمن الأسرة طمعاً في مالٍ أو تغيير حال ، فإن في ذلك تعدياً على الحقوق دون مبرر وأكل مال بالباطل والله خبير بما تكنه النفوس .

ثالثاً : قد يقول قائل ممن يثيرون شبهات حول الإسلام كيف يعالج نشوز الزوجة بالوعظ والهجر والضرب ويعالج نشوز الزوج بالمصالحه والتنازلات للحفاظ على الأسرة ؟

والرد على ذلك مستنبط من مبدأ قوامة الرجل ، فالرجل قيم الأسرة وراعيها ، وقد أشارت الآية في هذا الموقف بالذات إلى تسمية الرجل (بعلاً) والبعل هو السيد ، وللسيد والقيم والراعي أن يؤدب ويردع ولا يكون مثل ذلك لمن يكون تحت يده وإلا لانقلبت الموازين وعمت الفوضى . ثم إن آية نشوز النساء تثير ضمناً إلى أن النشوز في النساء كثير لتغلب عاطفتهن وسرعة استوائهن وتقلبْ مشاعرهن ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن ﴾ فاستعمل إسم الموصول المجموع (اللاتى) دلالة على تكرار هذا الأمر بالنساء بينما في آية نشوز الرجال استعمل حرف (إن) الذي يفيد الشك وعدم التحقيق ، كما استعمله بصيغة المفرد (وإن امرأه خافت من بعلها) مما يدل على أن نشوز الرجل نادر ولا يكون إلا في حالات فرديه ، وحتى لو حصل فهو من نشوز السيد لمن تحت يده .

وعلى كل حال فإن منهج الإسلام لا يكره المرأة على شيء فهي حتى في حالة نشوزها وتأديب الرجل لها يمكنها طلب الطلاق والتحرر مما تشكو منه بالخلع شريطة أن ترد له ما أخذت تمشياً مع مبدأ (لا ضرر ولا ضرار) .

ويقال الشيء نفسه في حال نشوز الزوج فإن المرأة غير ملزمه بالتنازل عن كل شيء ويمكنها طلب الطلاق وفصم عرى الزوجيه ، والأمر هنا متروك لها لتقدر ظروفها ومدى ضررها ومنفعتها ، إذا شاءت استقرت على ما تصالحا عليه وإن شاءت طلبت الطلاق ، وقد حدث ذلك في عهد الرسول الكريم ﷺ في

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، فعلى الوالدين أن يغرسا في ابنهما الخصائص والسمات التي تطبعه بالطابع الإسلامي من قيم واتجاهات ومعايير للسلوك يكتسبها الطفل من خلال تفاعله المستمر معهم ومع إخوته وأقاربه .

إن أهداف التربية القرآنية كما ذكرها الدكتور محمد فاضل الجمالي واضحه ومحدده هي :

١ ـ تعريف الإنسان بمكانته بين الخليقه وبمسؤولياته الفردية في هذه الحياة .

٢ ـ تعريف الإنسان بعلاقاته الاجتماعيه ومسؤولياته ضمن نظام اجتماعي إنساني .

٣ ـ تعريف الإنسان بالخليقه (الطبيعه) وحمله على إدراك حكمة الخالق في إبداعها ، وتمكين الإنسان من استثمارها .

٤ ـ تعريف الإنسان بخالق الطبيعه وعبادته .

علماً بأن الأهداف الثلاثة الأولى إذا تحققت تؤدي تلقائياً إلى الهدف الرابع .

أيضاً هناك قواعد ووسائل تربوية مؤثره يمكن أن يتبعها الوالدان كما ذكرها عبد الله ناصح بن علوان في كتابه (تربية الأولاد في الإسلام) أوردها بشيء من الإيجاز وبتصرف :

١ ـ التربية بالقدوه :
وهي من أنجح الوسائل المؤثرة في إعداد الطفل خلقياً ونفسياً واجتماعياً ، وهي عامل كبير في صلاح الطفل أو فساده .

٢ ـ التربية بالعاده :
وهي أن يهتم الآباء والأمهات بتعويد وتلقين وتأديب أبنائهم في المراحل الأولى من تنشئتهم على فضائل الأعمال ، ومكارم الأخلاق وآداب الإسلام

٣ ـــ التربية بالموعظه :

وهي قيام الوالدين بالتذكير والوعظ والنصح ، لما في ذلك من أثر كبير في تبصير الطفل والشاب بحقائق الأمور ، وهي من الوسائل المؤثرة في تكوينه الإيماني وإعداده الخلقي والنفسي والإجتماعي .

٤ ـــ التربية بالملاحظه :

وهي من أقوى الأسس في إيجاد الإنسان المتوازن المتكامل ، وذلك بالملاحظة والمراقبه للطفل في كل حركاته وسكناته بشكل مستمر .

٥ ـــ التربية بالعقوبه :

وهي صيانة أساسية لا يستطيع الإنسان أن يستغني عنها ، لأنها وسيله من الوسائل اللازمة في المجتمع البشري التي تتم بها المحافظة على (الضرورات الخمس) وهي : حفظ الدين ، حفظ النفس ، حفظ العرض ، حفظ العقل وحفظ المال .

وعليه وضعت الشريعات عقوبات لمن يتعدى عليها وهي تعرف بالحدود الشرعية .

كما أن على الأسرة المسلمة التي تخاف الله في أبنائها أن تربيهم وتحافظ على النواحي الثلاث التاليه :

١ ـــ الناحية الجسميه :

وتكون بالعمل على سلامة الجسم من الأمراض ، وأن يكون قوياً وخير عون على طاعة الله في أداء ما أوجبه الله عليه من العبادات التي تعتمد على الجسم والعقل معاً . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ .

٢ ـــ الناحية العقليه :

قال تعالى : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئده ﴾ وفي هذه دلالة واضحه على ما أنعم الله به على عباده وأنه يجب عليهم أن يشكروا

قصة رافع بن خديج وزوجته التي تزوج عليها زوجة شابه فآثرها عليها فأبت الكبيره أن تقر على الأثره فطلقها تطليقه وتركها ، فلما قارب انتهاء عدتها خيرها بين الفراق والرجعه والصبر على الأثرة فاختارت الرجعة والصبر على الأثرة فراجعها وآثر عليها فلم تصبر فطلقها .

* * *

مفاهيم ووصايا تربويه

الحديث عن الأسرة المسلمة ودورها في تربية الناشئة لهو من المواضيع المهمة في عصرنا الحاضر ، وما تعيشه أمتنا الإسلاميه في مواجهة التيارات ضد الإسلام وبخاصة المرأة المسلمة وهي المستهدفه من كل ذلك ، لان بصلاحها يصلح المجتمع . لهذا نجد بين الفينة الأخرى متكرر الحديث عن الأسرة وأهميتها وكيفية المحافظة على هذا الكيان العظيم وذلك للتذكره (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

الأسرة المسلمة هي الراعي الأول للطفل وهي المسؤولة عن نموه دينياً ، اجتماعياً ، نفسياًوثقافياً ... وتتمثل هذه المسؤولية في الحديث الشريف « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » متفق عليه .

فالأسرة هنا نعني بها الوالدين وهما النواة إضافة إلى ذلك كل من يوجد داخل البيت من أقارب وأخوه ولكن المسؤولية في التربية والرعاية على الوالدين .

أما إذا أردنا أن نعرف المنهج الذي يجب أن تتبعه الأسرة المسلمة في تربية أبنائها ، فلا شك أن منهج التربية الإسلامية الذي لا يشاركه أي منهج آخر هو السبيل الوحيد لتنشئة الطفل المسلم ، لأن الإسلام يهدف إلى تكوين الإنسان الصالح وليس مجرد المواطن الصالح الذي تهدف إليه المناهج الأخرى . والتربية في معناها إعداد للحياة بتوجيه سلوك الطفل والشاب حتي يميزا بين الخير والشر وما هو صالح وما هو فاسد ، لذا فواجب على الأسرة أن تتنبه إلى هذا الجانب المهم ... وصدق الرسول ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه

الله على جوده وإنعامه ، وفيه دعوه إلى التأمل والتفكير في الكون ، وما أودع الله فيه من خصائص .

٣ ـــ الناحية النفسيه :

إذ تكون بترسيخ العقيدة الإسلاميه وإخلاص العبادة لله وحده ، والخوف والرجاء من الله ، لأن مهمة العقيدة الإسلامية المقرونه بأدلتها أن تساعد الفطرة على الإهتداء إلى الله . والنفس الإنسانية هي المسؤولة في الإنسان عن اتجاه كل أنواع السلوك الإرادي ، وتملك الإتصال بما لا يدركه الحس والعقل . فعلى الوالدين ربط أبنائهما بالله وذلك بحفظ كتاب الله والأحاديث الشريفه ، فعن طربق النفس التي تمدها الروح بالحياة يتم الإتصال بين الإنسان وخالقه ، لأن الروح نفخه من روح الله التي أودعها الله قبضة من طين ، فصار إنساناً . قال تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .

كما لا يفوتني إلى أن أشير إلى نواحي أخرى لابد من تربية الأبناء عليها وهي :

- تربيتهم على بر الوالدين .
- تربيتهم على صلة الرحم .
- تربيتهم على الحياء واحترام الجيران .
- تربيتهم على الكرم والنظافه .

* * *

السعادة الزوجية

كيف تسعد زوجتك

كيف تسعدين زوجك

من وجهة نظر إيمانية

اعداد

ماجد سليمان دودين



دار الإسراء للنشر والتوزيع

ت/٨٤٣٥٣٢

١٤١٣ هـ - ١٩٩٤م
القاهرة ت/٦٧٦٠١٣
عمان - الأردن - ت/٨٤٣٥٣٢ - ص.ب. ٦٧٩٧

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية (١٩٩٤/٩/٩٠٣)

رقم التصنيف : ٢١٦,٥٣

المؤلف ومن هو في حكمه : ماجد سليمان دوديـن

عنوان المصنف : الى الطريق : السعادة الزوجية

رؤوس الموضوعات : ١- الفقه الاسلامي

٢- العلاقات الأسرية

رقم الايداع : (١٩٩٤/٩/٩٠٣)

الملاحظات : عمان : دار الاسراء للنشر

☆ تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

هذا الكتاب

مجموعةٌ منتقاةٌ مِنْ المقالاتِ كتبها أهل الاختصاص من علماء الشريعة والفقه والإجتماع والنفس والإنسان تبين الطريق إلى السعادة الزوجية من وجهة نظر إيمانية بحيث يستطيع الرجل وهو ربان سفينة الأسرة أن يحقق السعادة مع شريكة حياته ملكة مملكة الزوجية .

لقد اخترت هذه المقالات بعناية لأنها تلامس وجدان الإنسان التقي النقي ولا يسعني إلّا أن أشكر هؤلاء العلماء الأفاضل الأجلاء الذين أفدت من أبحاثهم ومقالاتهم .

ماجد دودين

هذا الكتاب

إن من عظمة هذا الدين وشموليته أن أرشد العباد لأسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة ليأخذوا بها وأسباب شقائهم ليبتعدوا عنها فجاء ذلك واضحاً في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكاً** ﴾ .. .

فالمسلم الحق يعلم أن هذا الدين جاء منهجاً للحياة فهو دينٌ شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ويعلم أيضاً أنه مطالبٌ أن يتبع هدى الحق تبارك وتعالى في كل شئون حياته ومنها الزواج عملاً بقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له** ﴾ ثم يبين اللهُ تعالى أن ذلك ليس إختياراً ولكنه أمرٌ من الله فكانت بقية الآية ... ﴿ **وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ .

من هنا تبدأ سعادة العبد في دنياه وآخرته .

ولكن .. أعداء هذا الدين أرادوا للمسلمين أن يبتعدوا عن هذا الفهم الشامل للإسلام فزينوا للمرأة أن سعادتها في التحلل من الفضيلة وإظهار مفاتنها للرجال وإتباع خطوط الموضة وإقامة العلاقات مع الرجال ثم الزواج من الشاب المدلل المتحلل من كل معاني الإسلام فكان بذلك الشقاء لأنهم أبعدوهم عن منهج الله جل وعلا ... في حين أن الإسلام قد طهر المجتمع من هذه الرذائل فجعل سعادة المرأة في الإستجابة لأمر ربها وفي إرتداء حجابها الشرعي ثم زواجها على منهج الإسلام وهدى القرآن من صاحب الخلق والدين لبناء الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم ... فإذا تحقق هذا النموذج الإسلامي للزواج كانت السعادة الزوجية الحقيقية .

وهذا الكتاب يبين مقومات تلك السعادة الزوجية والمعنى الحقيقي للسعادة وصولا إلى حياة زوجية سعيدة على المنهج الرباني .

والله الموفق
الناشر

السعادة الزوجية

تمهيد

قبل أحد عشر عاماً وزّعت استبياناً في الجامعة على عيّنةٍ عشوائيةٍ من الطلاب والطالبات وقد تضمّن الإستبيان سؤالاً واحداً من جملة واحدة هي « ما هو تعريفكِ للسعادة ؟ » وجمعت الأوراق أتفحصها وأمحّصها وأحلل المعلومات والتعاريف الواردة فيها .. وقد كانت دهشتي عظيمة .. جدّ عظيمة حين لم أجد تعريفاً واحداً من التعاريف الكثيرة يشير من قريب أو بعيد إلى ارتباط السعادة بالإيمان فقد كانت كل التعاريف مادية صرفة « تُعرّف السعادة على أنها امتلاك للمادياتِ من أموال وزينةٍ وزخارفٍ ومتاعٍ ورياشٍ وأثاث .. حتى أنّ إحدى الفتيات كتبت على ورقة الإستبيان « السعادة كوخٌ صغير أمامه سيارة فارهة أطول منه ـــ من الكوخ ـــ » وحاولت الغوص في هذا المفهوم للسعادة فوجدتُ أنّ المادة لأبد وأن تطغى على الروح مادامت السيارة لأبد وأن تكون أطول من الكوخ .. على اعتبار أنّ الكوخ يرمز إلى الرومانسية والشفافية والروحانيّة والحس المرهف .. أما السيارة فترمز إلى المادة .. وبهذا التعريف العقيم للسعادة لن يحدث التوازن ولا الإتزان ولن تتحقق الوسطية ولا الاعتدال .

لقد كان حُلمي أن أحصل على تعريف إيماني للسعادة يقول :

السعادة الحقة هي حالة صُلح الإنسان مع خالقه ثم مع نفسه والناس من حوله ... فإذا كان الإنسان في حالة صلح مع خالِقه لابدّ وأن يكون في حالة صلح مع نفسه وبالتالي مع الناس وكل الموجودات من حوله ... أما إذا كان الإنسان في حالة حرب ،مع خالقه ورازقه والمنعم عليه بِنعَم الإيجاد والإمْداد والهداية والسداد فإنّه والحالة هذه سيكون في حَالة حربٍ مع نفسه وبالتالي مع الناس وكل الكائنات والموجودات من حوله ودليل ذلك قول الله تعالى :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه]

وهذا ينسجم تمام الإنسجام مع نظرة الإسلام إلى الكون والحياة والإنسان فشرائع الله وأحكامه إنّما تنزّلت من عند الله سبحانه هدىً ورحمةً للناس ، ودواء وشفاءً لما يعْرِض لهم من آفات تطغى على فطرتهم ، وتحجب وجه الحق عنهم .

إنّ الدين الذي شرعه الله لعباده إنّما هو لخير الإنسان ، وأمنه ، وسلامته ، وسعادته ، في ذات نفسه ، وفي المجتمع الذي يعيش فيه ... فإذا لم يجد الإنسان المسلم بين يديه ، وفي قلبه ، كل هذه الثّمرات الطيّبة التي يقطفها المؤمنون من مغارس الدين ، فليّتّهم نفسه ، وَلْيَعْلَم عن يقين أنّ هناك خللاً في صلته بالدين وعلاقته بالله رب العالمين .

والحديث عن هذه السعادة بمفهومها العام وإطارها الشامل تناولناه في كتابنا « مفاتيح السعاده » ... ولكنني في هذا الكتاب سأتناول موضوع « السعادة لزوجية والطريق إليها » وحين ترفرف رايات السعادة في القلوب والنفوس الارواح في ظل حياة زوجية هانئة رائعه فإنّ رايات الخير والاستقرار والسكن

والمودة والرحمة والتراحم سترفرف في المجتمعات الإسلامية الإيمانيه ومن الخير تحقق النصر على الأعداء ... وهذا النصر لا يتأتى إلّا إذا حققنا النصر على أنفسنا بإقامة المجتمع الإيماني إنطلاقاً من بناء الأسرة الإسلامية وحين نقول : « الأسرة الإسلامية » فإننا نعني « الحياة السوية » بتحقق « المعادلة المنطقية » التي أطرافها : رجل مؤمن سوي + امرأة مؤمنة تقية نقيّة = حياه إيمانية سوية سعيدة هانئه . فالحياة في المنظور الإسلامي رجلٌ وامرأةٌ وما عداهُما خُلِقَ من أجلهما ... إننا لم نُخلق لنأكل ونشرب فحسب ولكنّ كل الأشياء المادية خُلِقَت لنا ونحن خُلقنا لهدفٍ أسمى يتجاوز الماديات وينطلق إلى عالم الروح كي تكون الاطار والخيط العام الذي يقودنا إلى الحقيقة الخالدة التي تكون الحياة بدونها عبثاً وجنوناً وتعاسة .

وما سر الضنك والقلق والتخبط الذي نحياه على كل صعيد ومنها صعيد الأسره وفي كل مناحي الحياة ومنها الناحية الاجتماعية إلّا أننا نُصِر على أن نتعلم كل شيء حول الهدف الذي خلقنا الله لأجله وننسى أو نتناسى كل شيء حول الهدف الذي خلقنا الله لأجله وهو العبودية في إطارها الشامل المتكامل .

وسأتناول موضوع « السعادة الزوجية والطريق إليها » بالحديث عن مجموعة من القضايا التي إنْ فقهناها ــ رجالاً ونساء ــ تحققت السعادة التي نحلم بها جميعاً وأبحرت قوارب حياتنا إلى شواطىء النجاة والسلامة وبر الأمان والسعادة .

ماجد سليمان دودين

حكمة تكوين الأسرة في الإسلام

تنطلق نظرة الإسلام في بناء الأسرة المسلمة من قاعدة أساسية تشكل حكمة متكاملة ذات مستويات متعدده .

• مستوى كونها احتمالاً لم يتحقق بعد .
• ومستوى كونها فعلاً يتحقق الآن .
• ومستوى كونها فعلاً قد تحقق .
• ومستوى كونها فعلاً استقر على قاعدة صلبة ، أو تعرّض لرياح القلق والاهتزاز .

من المنظور الأول : (كون الأسرة احتمالاً لم يتحقق بعد) ... يحث الإسلام على تخيّر نوعيّة المرأة التي ستصير زوجة للرجل وأماً للأبناء لتخريج جيل من الشبيبة المسلمة ونموذجاً لسلوكيات المرأة المسلمة .

... وفي هذا الصدد يوجّه الإسلام إلى ضرورة التريّث والاختيار : حتى يقوم بناء الأسرة على منطق الحبّ وليس على منطق الصفقة ، ولعلّ في حديث النبي ﷺ ما يؤكد هذا ... « ألا أخبركم بخير ما يكتنز المرء له : المرأة الصالحة : إذا نظر إليها سرّته ؛ وإذا غاب عنها حفظته ؛ وإذا أمرها أطاعته » ... « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » ... « تزوّجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم » ... « تُنكح المرأة لأربع : لجمالها ومالها وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » ... « أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة ، قلب شاكر ولسان ذاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه حوباً في نفسها وماله » .

هذه التوجيهات الراشدة والحاسمة معاً ، تفرض بالضرورة على المسلم ان يصحح من منظوره في اختيار شريكة الحياة ، وتضعه أمام مرحلة الاختيار في منطقة الوعي بأنّ المال عرض ، وبأن الجمال عارية ، وبأن الحسب مقياس تراتّي ، وبأن الدين وحده هو الأساس الحقيقي الذي يمكن أن تقاس به درجة القبول والرفض : لأنّه هو الأساس الحقيقي الذي يعصم المرأة من أن تصبح شريكة بالمال في حياة تستهدف السكن والحب ودفء العلاقات ، أو شريكة بالإنتماء العائلي في حياة عقيدية يمكن أن يضحّي المرء في سبيلها بكل الانتماءات إذا تعارضت مع سمته العقائدي أو إيمانه المصيري ، ويبقي الدين وحده جامعاً لا يتعرض للتفتت ، وجامعة لا تتعرض للإنفكاك .

• ومن المنظور الثاني (كون الأسرة فعلاً يتحقق لحظة القبول) يحث الإسلام على التعرف الكامل من جانب كل من الشريكين على الآخر ، لأنّ ذلك أدعى إلى تمتين أواصر الحب ، وأخلق ببناء الأسرة المسلمة على قاعدة الاستبصار وليس على عشوائية الربط بين النقيضين ... إن من حق الرجل والمرأة على السواء أن يعرف كلاهما الآخر ، وأن يرى كلاهما الآخر ، وأن يجلس كلاهما إلى الآخر دون خلوة وفي حياطة الأسرة ورعاية المناخ العائلي ... ومن حق الرجل والمرأة على السواء كذلك أن يرضى كلاهما بالآخر ، وأن يوافق كلاهما على الآخر ، حتى تبدأ الرحلة الحياتية بكلمة الحب لتنتهي إلى حب دائم يظلل مسافات الحياة .

وقد أقر النبي ﷺ هذه الأسس في حادثة الفتاة المسلمة التي وفدت على عائشة رضي الله عنها ، تشكو إليها أنّ أباها زوّجها من ابن أخيه ، ليرفع بها خسيسته ... وحين يدخل الرسول ﷺ يبعث بمن يستقدم له أباها ، ويلومه على ما فعل ، ويترك للفتاة حرية القبول أو الرفض ... فتقول الفتاة ... (يا رسول الله ، قد أجزتُ ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أُعْلِمَ النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء) ... ليس ذلك فحسب ، ولكنّ الإسلام أعطى كلاً من الرجل والمرأة على السواء كذلك ، حق أن تتعادل كفّتاهما في هذا اللقاء ، وهو

ما عبّر عنه المصطلح الإسلامي بالكفاء المادية ، بالكفاءة المادية، والكفاءة الفكرية ، فإن ذلك أعون بالضرورة على خلق المناخ الصالح لتبادل الرأي والمشورة ، وتبادل البذل والعطاء ، وليس في هذه النظرة الإسلامية ما يَشي بحسٍ طبقي كما يزعم البعض . ولكنّها نظرة موضوعية تضع كل شيء في نصابه الطبيعي ، حتى لا يفقد أي من الطرفين طبيعة الأرض المشتركة التي يقف فيها إلى جوار صاحبه يبادله العطف والفكر والكدح وتوجيه أمواج الحركة الحياتية في اتجاه شاطيء القرار ... على أن هذه (الكفاءه) محكومة بنظرة كل من الطرفين إلى الآخر وسكونه إليه ، ولو كان من نوعيّتي تركيب اجتماعي متفاوت في موازين العرف والمال والاجتماع .

* ومن المنظور الثالث : (كون الأسرة فعلاً قد تحقق بالفعل) يحث الإسلام على التزام نوعيات محددة من الحقوق والواجبات ، فللزوج حقوق على زوجته ، وعليه واجبات حيالها ، وللزوجة حقوق على زوجها ، وعليها واجبات حياله ، وللوالدين حقوق على أولادهما وعليهما واجبات حيال هؤلاء الأبناء ، وللأبناء حقوق على الوالدين وعليهم واجبات حيال هذين الوالدين ... ولحكمة مّا لم يترك الإسلام هذه الحقوق وهذه الواجبات سدى ، استناداً إلى وشائج الدم والحب التي تربط بين أولئك وهؤلاء ، ولكنّه حدد الحقوق والواجبات ، وجسد نوعية العلاقات بين الجميع في ظل الوفاء بهذه الأُطر ، وفي ظل نقضها جميعا ... وإنْ كان الإسلام قد حرص على شيءٍ قبل هذه العلاقات ، وبعد هذه العلاقات ، فهو حرصه على بر الوالدين ، حتى في لحظات الإنشقاق العقائدي ... صحيح أنّه حَذَّرَ الأبناء من متابعة الآباء في قضية الشرك بالله ، والكفر بواهب الحياة ، ولكنّه حذّرهم كذلك من التخلي عن أب ضلّ أو أم حادَث ، ويكفي أن لا نطيعهما في قضية الشرك ، ولنصاحبهما بعد ذلك في الدنيا معروفاً ... إنّ الحقوق والواجبات تبدأ — في الوجهة الإسلامية — من حسن المعاشرة ، إلى كفالة الحق المادي ، والحق المعنوي ، إلى تبادل الرأي وطرح الاستبداد ، إلى تحديد مناطق النفوذ في البيت ، إلى تأصيل دعائم الصون

والاحترام في علاقة كلّ بكلّ ، وبهذا يتحول البيت المسلم إلى جنة السعادة من جهة وإلى مملكة محروسة التخوم من جهة أخرى .

* ومن المنظور الرابع : (كون الأسرة فعلاً تحققت ثم تعرّض بعد ذلك للقلق أو بداية الاهتزاز) يحث الإسلام ـــ مع بداية الانشقاق في الأسرة على التعقل وتوطين النفس على مصابرة الخلافات ... وقد مرّر علاقة الرجل بالمرأة ـــ مع بداية الانشقاق في جدار الحب بينهما ـــ في مراحل الوعظ الرفيق ، والهجر اللاذع ، والزجر المستأني . فإذا لم تفلح هذه العلاجات الأولية لجأ الطرفان إلى التحكيم فيما بينهما ، حكم من أهله وحكم من أهلها ، وشرط في الحكَمَيْن أن يكونا على نيّة الإصلاح والبناء ، وليس على نيّة الخراب والدمار (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) فإرادة الإصلاح في الحكمين أولية لازمة بينهما ... فإذا لم تفلح هذه العلاجات كذلك ، فإن الإسلام يُعطي مساحة زمنية لمراجعة النفس (بعد الطلاق) . وبكلمة واحدة ، أو بملامسة مسترجعة ، تعود المياه إلى التدفق ، وتعود إلى الشفاه اليابسة بسمة الحب والرضى . وإلّا فإنّ بتر الداء في بواكيره أجدى من تركه ليراكم أعطابه في كل اتجاه .

وهكذا ... يلوح ... بلا إدّعاء ... أن نظرية الإسلام في بناء الأسرة السعيدة ، تنطلق من قاعدة أساسية ، تشكل حكمة متكاملة ذات مستويات متعددة .

فهو ينظر إليها من مستوى كونها احتمالاً لم يتحقق بعد فيوصي على ضرورة الاختيار والانتقاء .

وهو ينظر إليها من مستوى كونها فعلاً قد تحقق الآن على التعرف والرؤية والرضى .

وهو ينظر إليها من متسوى كونها فعلاً قد تحققت بالفعل ، فيؤكد على تحديد العلاقة القائمة في رحاب الحق والواجب .

وهو ينظر إليها من مستوى كونها فعلاً تحققت ثم تعرض للاهتزاز ، فيأمر

بتأجيل كلمة الفصل ، ومراجعة الذات حتى ينقشع غيم الكراهة الطارئة ، ويومض في الأعماق فجر الحب والتواصل من جديد .

• إن هذه النظرية الإسلامية لا تنهض على جانب عاطفي مبتوت الصلة بتحكيم العقل في الأشياء والعلاقات ... وهي لا تنهض كذلك على جانب عقلي مبتور الوشائج بتنمية عواطف الحب والرحمة ... ولكنها تنهض على فلسفة يتعانق فيها الجانب العقلي والجانب العاطفي ، حتى يستطيع أن تحتفظ لنفسها بقيمة التوازن الراشد ، وتظل على الدوام عاملة في مجال التحقق الإنساني بكل ما يشتمل عليه هذا التحقق الإنساني من عواطف الخير وتحكيم العقل في كل ذلك في جو من الإنسجام الطبيعي يتواتر على حركة البقاء في إنسياب فطري رائع .

ونكون بفهمنا لهذه القضايا قد أرسينا الأساس المتين والعقد المحكم والعروة الوُثقى في الطريق إلى السعادة الزوجيّة . ونستطيع بذلك أن نبحر معاً في رحلة تفصيلية لمناقشة كل المعاني والمعارف والمفاتيح التي بها ومن خلالها وبسببها نسير بخطىً واثقة في طريق السعادة الزوجية المنشودة ... وسأحاول جاهداً أن أرسم « خارطة السعادة الزوجية » بالاستعانة بأبحاث علماء النفس والاجتماع والتربية والإنسان وبالإفادة من خبرات وتجارب هؤلاء جميعاً بهدف الوصول إلى الهدف المنشود والغاية المقصودة من خلال الصورة الصادقة والنظرة الصائبة والفكرة الرائعة وأنا على يقين وكلّي أمل وتفاؤل — بعون الله — من أننا جميعاً سنشعر بعمق المتعة ونحن نخطو ونسير ونبحر ونطير في طريق السعادة الزوجية ... السعادة الرمز والسعادة الأمل ... والسعادة الحلم ... السعادة الرحمة والسعادة المودة والسعادة السكن ... السعادة النور ... والسعادة الطهر ... والسعادة الخير ...

السعـــادة التـــي تقودنـــا إلى سعادة الحياة وحياة السعادة
السعـــادة التـــي توصلنـــا إلى عمل الخير وخير العمل
السعـــادة التـــي تهدينـــا إلى نور الحياة وحياة النور

* * *

الإسلام والأسره

لا رَيب أن هي الخلية الأولى ، والركيزة الهامة في تكوين المجتمع الإنساني والعماد الراسخ للعمران البشري ... وما أشدّ اهتمام الإسلام بتكوينها ، وترسيخ قواعدها ، والعناية بتنظيمها ورعايتها ، فقد عَظَّمَ أمرالأنساب ، وأعلى قدرها ، فأمر بالنكاح وحرم السفاح ، وبالغ في تقبيحه ردعاً وزجراً وحثّ على الزواج استحباباً وأمرا ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان]

ولا غرو ولا عجب ، فإنّ الزواج هو العاصم للدين والخاذل للشياطين ، والحصن الحصين للمؤمنين ، وسبب لتكثير المسلمين ، يباهي به سيد المرسلين .

ولذلك رغب الإسلام في الزواج كثيراً ، وحض عليه في القرآن الكريم والسنّة النبوية حضا عظيماً ، فقال تعالى :

﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء]

وقال عزّ وجل :

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ [النور ٣٢]

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يتزوجوا من النساء الطيبات الحلائل ، وأن يسعوا لتزويج من لا زوج له من النساء والرجال فقال تعالى :

﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة ٢٣٢]

وقال عزّ من قائل :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد ٣٨]

وقال تعالى على لسان عباد الرحمٰن :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾

[الفرقان ٧٤]

وأعظم بترغيب الرسول ﷺ في النكاح حيث يقول : « النكاح سُنّتي ، فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي » ... وحين يقول : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً ، فليتزوّج الحرائر » ...

ولنستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يوضّح أهداف الزواج وحكمته ، مخاطباً شباب أمته فيقول : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع ، فعليه بالصوم فإنه له وجاء » رواه البخاري ومسلم ...

وقال ﷺ : « تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة » وقال : « من كان ذا طَوْل فليتزوج »[1] .

---

(١) طَوْل : أي قدرة على تكاليف الزواج .

وقال ﷺ زاجراً ومهدداً المعرضين عن الزواج مَخافة العيلة (الفقر) « فليس منا » أي ليس مستناً بسنتنا ولا مهتدياً بهدينا .

وأوضح ﷺ أنَّ العزوبة مبعث الشرور ، ومنبع الفجور ، والسبيل إلى الشيطان ، فقال : « شراركم عزابكم ، وأراذل موتاكم عذابكم » ...

أجل ... نهى الإسلام عن العزوبة والتبتل، لأنهما ينأيان بالمسلم عن السبيل الأَسَدّ ، والطريق الأقوم ، وبهما يتوقف التكاثر والتناسل ، وتخرب الدنيا ، وينقطع العمران ، أما الزواج ، فبه يتم التناسل ، وتعمر الدنيا ، وتنمو الأمة وتتكاثر ، وتقوى وتعتز وتسعد وتتناصر .

وبيّن الرسول ﷺ أنّ بالزواج يستكمل الإنسان دينه وتقواه فقال : « من تزوّج فقد عصم نصف دينه ، فليتق الله في النصف الآخر » ... كما يقول « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله ، خيراً له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسه وماله » ... ففي هذا الحديث الشريف يقرن الرسول ﷺ الزواج الصالح بالتقوى ، ويجعله تالياً لها في مرتبة الشرف .

* * *

وحسن العقبى .

ومن الآثار التي جاءت توضح فضل الزواج وتحض عليه قول ابن عباس رضي الله عنهما : « لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج » وقول عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ « لا يمنع من النكاح إلّا عجز أو فجور » وقول ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ : « لو لم يبق من عمري إلّا عشرة أيام لأحببت أن أتزوّج لِكَيْلَا ألقى الله عزباً » .

وما أُثر عن معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ فقد ماتت له امرأتان في

الطاعون وكان هو أيضاً مطعوناً فقال : « زوّجوني فإني أكره أن ألقى الله عزبا » .

ونظرة فاحصة متأنية متأملة إلى قوله ﷺ : « من لان موسرا لأن ينكح ، ثم لم ينكح ، فليس مني »[1] تعطينا ترهيباً وتشديداً واعلاناً بقطع الأواصر التي تربط المؤمن وتصله بالنبي ﷺ وتجعل التارك للنكاح مع القدرة عليه بمنأى ومعزل عن الجناب النبوي الشريف ، ولا بدع في ذلك فإنّ من أعرض عن الزواج مع الصحة واليسر والفراغ والشباب ، والغرائز الجامحة كانت نفسه ميداناً تموج فيه خواطر الشر والانحراف ، ومسرحاً تجول فيه جنود الشيطان والفساد والاستهتار .

ونستنتج من كل ما سلف أنّ الزواج من أكبر آلاء الله على بني الإنسان ، فالزواج داعية التواد والتراحم ، ومجلبة الألفة والوفاق ، فيه تسكن الأنفس وتستروح وتستريح وتأنس من مشاق الحياة ولغوبها ونصبها ومتاعبها وعنائها ، وفيه جمامٌ ــ راحةٌ ــ للإنسان تُقوّيه على ممارسة أعماله وعلى عبادة ربه ، ومتابعة أعماله وأحواله ، وصدق الله العظيم إذ يقول موضحاً آيات قدرته ونعمته :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم ٢١]

وفي الزواج مجاهدة النفس ورياضة لها برعاية الأهل والأولاد والقيم بحقوقهم واحتمال التبعات في سبيل تربيتهم وتثقيفهم ، ولذلك كان الساعي في اكتساب الرزق له ولأهله ولأسرته كالحاج والمجاهد في سبيل الله « طوبى لمن بات حاجاً وأصبح غازياً ، رجل مستور ذو عيال ، ومتعفف قانع باليسير من الدنيا يدخل

---

(١) رواه الطبراني .

عليهم ضاحكاً ، فوالذي نفسي بيده ، انهم هم الحاجون الغازون في سبيل الله » .

وقد قيل فضل المتأهل « المتزوج » على العزب كفضل المجاهد على القاعد ، وركعة من متأهل أفضل من سبعين ركعة من عزب » ... وفي إطار الزواج تنكسر شهوة الإنسان العارمة ويتم تدبير المنزل ويعصم الدين ، ويقوى الإيمان ، وبه يتوصل إلى الولد الذي يعتبر أهم ثمرات الزواج ، وأعظم القربات إلى الله ، إذ هو يوافق محبة الله ومرضاته لأن فيه ابقاء الجنس الإنساني ، وفي طلب الولد محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به المباهاة والمفاخرة يوم القيامة ، واستمع معي إلى قوله ﷺ : « خَيْرٌ نسائكم الولود الودود » وبالولود يكون التبرك بدعاء الولد الصالح لأبيه بعد موت الوالد كما قال ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .



أسرة بلا مشكلات

عندما خرجت المرأة للعمل ... كان لهذه الطفرة مضاعفاتها . والتى منها : نقل دورها تحت سقف البيت ... إلى ساحة المجتمع يتصور علاقاتها في البيت مجرد مشاركة رتيبةٍ خاليةٍ من عواطف المودة ... إلّا قليلا .

فالمفروض أن تكون في بيتها : زوجة وفيَّة ... رقيقة الطبع ... طيبة الكلمة . انسانية الاتجاه . تستوعب قلبها الحاني آلام الصغار . وتستقبل بحكمتها هموم الكبار ... لتنحسر بين يديها ... واضعة نفسها كزاوية الجدار ... بها يكون القرار .

بينما تنحسر علاقاتها الاجتماعية في أضيق الحدود .... حفاظاً على كرامتها ... لكنها ــ تحت وطأة العمل واتصالها بالرجال ــ لم تدّخر لبيتها إلّا نخالة العواطف تبذلها ضائقاً بها صدرها ... وبينما يتضرر الصغار جوعاً إلى عواطفها النبيلة ... وبينما يتحرق الزوج شوقاً إلى دفء المودة إلى جانبها ... إذا بها تبخل عن نفسها جاعلة النصيب الأوفى من حنانها وعطفها واهتمامها للزملاء في العمل !! أو تكاد .

ومازلت أذكر هذا الصديق الذي جاء يطلب مساعدتي في نقل زوجته العاملة معه في العمل ... وفي نفس الحجرة :

إنّ جمرة الغيرة لتتقد بين جنبيه كلما رأى عيناً تُصوب إليها . أو جملة تنصب عليها . ويحس بالهوان كُلَما شاهدها تُستدعى بالأمر ــ! ــ للمثول بين يدي رجل غيره ... هو رئيسها ورئيسه ؟! إنها تُسرع إليه حريصة على ولائها له حرصاً يجعل أملها في الترقيةِ قائماً ... ثم هو يراها ... ويسمعها في المكتب ...

فإذا هي في أبهى حُللها وإذا الكلمات المتبادلة بينها وبين زملائها منقاة مختارة ! وأين هذا من مشهدها في البيت ... متبذلة ... آمرة ناهية ؟!

ونتسائل هنا :

هل يُعَوِّض الراتب المضروب في اثنين ما يفقد هذا الفتى من خلاياه التي تحترق ؟

والجواب عند الأخوة القراء . فلا حاجة بنا إلى ذكره . لكنّ حاجتنا الملحة هي البحث عن مصدر السعادة الأسرية فراراً من حياة تطوّقها المشكلات ... لعلنا نأخذ سمتنا من جديد إلى أسرة تتحمل فيها الزوجة مسئوليتها كأنثى . وأسوتنا الحسنة هنا هو رسول الله ﷺ والذي نقف الآن أمام صورة من بيته الكريم تبصرة وذكرى لمن أراد أن يأخذ إلى السعادة سبيلاً ـــ جاء في حلية الأولياء : « قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يخصف نعله . وكنت أغزل . فنظرتُ إليه . فإذا جبينه يعرق وعرقه يتولد منه نور . قالت : فَبُهِتُّ . قال : ما لكِ بُهِتِّ . فذكرت له النور الذى يتولد من عَرَقه . ثم قالت : لو رآكَ (أبو كبير الهذلي) لعلم أنّكَ أحقُّ بشعره » .

قال : « وماذا يقول ؟ »

قلتُ : إنه يقول :

وإذا نظرتُ إلى إسِرَّةِ وجهِهِ   بَرَقَتْ كبرقِ العارض المتهلّلِ

قالت عائشة : فوضع الرسول ما كان في يده . وقام إليّ فقبل ما بين عيني . ثم قال : « جزاك الله يا عائشة خيراً . ما سُرِرْتِ مني كسروري منكِ » .

ماذا في هذا المشهد من معانٍ جعلت من هذه الأسرة أسعد أسرة على الإطلاق ... وإن لم تملك أجهزة حديثة ... وخلا البيت من اللحم ... والفاكهة ... واللبن ... ستين يوماً ؟!

إن أعظم رجل على الإطلاق ... يرقع ثوبه ... ويخصف نعله ويقمُّ بيته ... وبيده ! إنه إذا لا يملك حذاءً جديداً لامعاً . ولا تجد الزوجة في صدرها حرجاً

من أن تنقل صورة زوجها بأمانة ... شاعرةً أنها تقدم للأجيال نفساً كبيرة لا تهمها الرياش بقدر ما يهمها إسعاد أمتها . وهو حجة على شباب مسلمي اليوم ... قد يكون السجن أحب إليه من رؤيته يخصف نعله أو يرقع ثوبه !

وإلى جانب الزوج ... زوجته العاملة : تدير بأناملها مغزلها ... تصنع ستائر النافذه ... وفرش السرير ، وبساط الأرض ... ومن نسيج محلي... غير مستورد ... أغناها عن كل مجلوب من الستائر عبر الحدود ... فأغنى الأسرة في نفس الوقت عن التبعية لغيرها ... اكتفاء بصناعتها الوطنية .

وكلا الزوجين يمارس عمله : اللائق ... المناسب : الزوج القوي : ينجز عملاً يستدعي بذل مجهود أكبر ... تفصَّد به جبينه عرقاً ... والزوجة في مهنة الغزل الميسرة ... الموائمة لطبيعتها ... والجميل هنا : أن العمل يتم تحت سقف البيت ... وما أسعد الزوج بامرأته في صحبته : ولاؤها له ... ونظرتها إليه ... وحديثها معه . وهو أشد سعادة عندما تعينه على عمله بالذهن اللماح . والكلمة الرقيقة الموحية ... والذوق الأدبي الذي يفيض بعيون الحكمة ... التي تجعل البيت واحة ظليلة جميلة ... وما أهون مشقة العمل في مثل هذا اللقاء الودود ... ثم ما أسعد الزوجة بزوجها إلى جانبها ... يملأ عليها الدار ... ويستجيب لمشاعرها الرقيقة بقلبه هي من حيث دلالتها أغلى من كل ما في الحياة ... ولو أنه عاد إليها من الخارج بأسورةٍ من ذهب ... أو جاء بكل هدايا السوق ما بلغ معشار هذه اللحظة المباركة !

وماذا تُساوي أغلى الهدايا إذا بقيَ البال مشغولاً ... والنفس موزعةٌ بين الولاء العمل والولاء للبيت ... بل ماذا تُساوى الدنيا والغيرة القاتلة تهجم على النفوس فلا تتيح لها أن تتذوّق للسعادة طعما ؟

أجل ... لقد جُمع الزمان فكان هذه اللحظة المباركة بين الرسول ﷺ وزوجته عائشة رضي الله عنها ... وما أكثر الساكنين القصور ... الراغبين في لحظة بهيجة كهذه . والتي لو جُمع العمر كله . مكانها ... لكفى ! ولو أنهم استطاعوا شرائها لفعلوا ... وباعوا في سبيلها كل ما يملكون ... وما يسكنون .

إنّ الزواج عشرة دائمة ... ولا تدوم العشرة إلّا بالثقة ... ولا تدوم الثقة إلّا باغلاق كل منافذ الفتنة ... والغيرة القاتلة ...

وإن الثقة لدائمة ما توفر للمرأة عملها ... المناسب ... وعملها الذي تطيقه ... وذلك ما توفره للزوجة هنا ... فكان هذا الحب ... وكانت هذه الثقة : يقول العقاد هنا : « وهي على الجملة حياة زوجية سعيدة . نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة في طول أيامها . ثم منزلة الشريكة المعينة في عبء التبليغ والرسالة .

وبلغت من الثقة بها في هذه المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة . فحفظت من تعليم النبي ما لم يحفظه أحد . وحفظ عندها النبي أغلى الودائع من بعده : صحف الكتاب . وسنته المشروعة لتابعيه » .

وإنها ترينا النبي في بيته . فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية . ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته كما يكون الرجال بين النساء . على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ . فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل سمة من سماتها » .

إن حرية المرأة تبتلعها اليوم ، بل إنها لتقتلها وتقتل معها زوجها وأولادها ... وهم أحياء يرزقون ! وحتى حين يكون جمال ... ولا تكون ثقه ... فإن الجمال سوف يذهب يوماً ... ولا يعود ... ذلك بأن الجمال رأس مال يوضع في مصرف غير أمين . وغير حريز ، ولابد من الإفلاس عند الشيخوخة . أما الإيمان بجلاله ... والعمل بجماله ... أما الثقة المتبادلة بين الزوجين فهي الرصيد ... وهي الذكرى : رصيد لا يفنى وذكرى لا تموت .

* * *

الزوجة الصالحة

في العديد من الأحاديث الجامعة نجد أن الرسول ﷺ يُشبه المرأة الصالحة بكنز ثمين من كنوز الدنيا ، بل يجعلها خير متاع الدنيا لزوجها ، حيث تجعل حياته دنيا سعيدة هنيئة لا منغصات فيها ، ولا غرو في ذلك فالخير لا ينتج عنه إلّا الخير .

• روى الترمذي عن ثوبان قال : لما نزلت : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله ... ﴾ كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه : أنزل في الذهب ما أُنزل ... لو علمنا أي المال خير فنتخذه ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه » قال الترمذي حديث حسن .

وفي رواية أخرى قال النبي ﷺ لعمر : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء :المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » رواه أبو داود والحاكم .

• وفي حديث آخر للرسول ﷺ قال : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » رواه مسلم .

• ثم عاد فأكد في حديث آخر منبع ذلك الصلاح بقوله عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فأظفر بذات الدين تربت يداك » متفق عليه .

إذن فأمر الصلاح في الزوجة ، في ضوء الإرشادات النبوية الحكيمة ، لا ينبع

من صفات مادية من جمال أو مال أو حسب ونسب ، بل يشعّ من جوهرها وذاتها الأصيلة ، التي رسَخَتْ فيها العقيلة وتربعت في أركانها ، فجعلتها تُحب الله وتخافه ، وتؤمن إيماناً راسخاً بما قضى لها الله من حظ في هذه الحياة الدنيا ، فتنزن أعمالها بميزان اليوم الآخر ، وتربط قلبها بالله ، مُراقبة أعمالها صغيرها وكبيرها ظاهرها وباطنها .

وإن زوجة من هذا النوع تعرف كيف تُحسن معاشرة زوجها ، ووفق منهج الشريعة الإسلامية ، بما ترشد إليه من أخلاق إسلامية عظيمة ، فيها سعادة الفرد والمجتمع .

وقد حوى القرآن الكريم والسنة المطهرة ملامح وأبعاد الشخصية الصالحة ... ففي القرآن الكريم نجد التأكيد على الزوجة التي جعلها الله سكناً وراحة واطمئناناً لزوجها ، ومنبعاً للمحبة والود والتعاطف ، وفيضاً من الإيثار والعطاء والرحمة ... ولا يخفى ما لهذه الصفات للمرأة من أثر على الحياة الزوجية السعيدة .

كما أشار القرآن الكريم المعاشرة بالمعروف ، وإقامة حدود الله بين الزوجين ليكونا زوجين سعيدين متعاطفين متوافقين ومتآلفين .

ومن أبرز صفات الزوجة الصالحة ، ومن محاسن أخلاقها خلق الطاعة ، الطاعة بالمعروف التي ينجم عنها استقرار الحياة الزوجية السعيدة وينتج عنها رضى الله سبحانه وتعالى عن المرأة المطيعة ويكون ثوابها الجنة كما أخبر النبى ﷺ : « المرأة إذا صلّت خمسها ، وصامت شهرها ، وأحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، فلتدخل من أي أبواب الجنة شاءت » .

بل إن طاعة المرأة لزوجها ، وحسن تبعُّلها له يرفع أجرها إلى مرتبة المجاهدين في سبيل الله ، كما سبق وبيّنا في قصة أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها .

وتعتبر القناعة والرضى من أجمل صفات المرأة الصالحة ؛ لأنَّها بقناعتها تكون قد توّجت إيمانها برضاها ـــ بقضاء الله وقدره فيها ـــ فعاشت راضية مرضية

مما يجعلها هانئة البال سعيدة النفس ، لا عُقد تعاني منها ، ولا حسدا يأكل صدرها ، غير نَقِمَةٍ على ذوات الحظوظ من حولها ... وهي تتمتع بكامل صحتها النفسية السوية ، التي تشع سعادة ورضى على من حولها ، وبذلك تقنع بالحلال ، ولو كان قليلاً ، ولا تكلّف زوجها فوق طاقته ، ولا تجرح مشاعره ، أو تهين كرامته ، بدعوى تقصيره أو ضيق ذات يده ، بل على النقيض من ذلك تحترم وتصون كرامته ، وتشاركه مشاعره ، وتنسيه متاعب الدنيا ، وتهوّن عليه مصائبها ، وتأخذ بيده في مواجهة مشاكلها مستعينة بإيمانها وصبرها ... لكي أختي المؤمنة بالسيدة خديجة ــ رضي الله عنها ــ أكبر قدوة في حدبها على الرسول ﷺ في أول مسيرة الدعوة ، وتشجيعها له ، ورفع معنوياته ، وبذلها مالها ونفسها في سبيل الدعوة ، ومشاركتها له فيما تعرّض له من أذى أعدائه ، وتحملها شظف العيش ، ومعاناة الفقر والمقاطعة ، وهي سيدة مُسِنَّة كانت ذات مال وشرف في قومها .

كما أنَّ المرأة القانعة الرضية ترفع اسم زوجها بين الناس ، فلا تذكره أمامهم إلّا بخير ، ولا تُشهر به أو تفضح له سراً .

والمرأة القنوع لا تنكر الإحسان ولا العشير ، ولا تجحد لزوجها حقاً من حقوقه ، بل إنَّ قناعتها تدفع بها إلى جعل مكان الصدارة والقوامة التامة لزوجها في بيتها ، كما تغضّ النظر عن بعض أخطائه أو عيوبه ، عملاً بقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : « لا يَفْرِكْ ــ يبغض ــ مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر » ... بل تتجاوز الدور السلبي إلى العمل على كل ما يُرضي الزوج ، ويُدخل السعادة إلى قلبه ، لتكون ذات تجارة رابحة مع ربها تأسياً بتوجيهات الرسول الكريم حينما قال لإحدى النساء : « أذات زوج أنت ؟ » قالت : نعم ... قال : « فأين أنت منه ؟ » قالت : ما آلوه إلّا ما عجزت عنه قال : « فكيف أنت له ، فإنه جنّتك ونارك » .

أما العفة والحياء فيعتبران أسمى وأنقى وأرقى وأجمل ما يُزيِّن المرأة الصالحة ، فالعفيفة الحييَّة لا تكون إلّا لزوجها ، لا تنظر إلّا إليه قاصرة الطرف عليه ...

وقد أشار القرآن الكريم إلى خلق العفة والحياء بصورة واقعية حينما وصف إحدى المرأتين اللتين وجدهما سيدنا موسى عليه السلام عندما ورد ماء مدين وسقى لهما فقال :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [القصص ٢٥]

وأشار القرآن الكريم أيضاً بالمرأة الصالحة لكونها قانتة حافظة للغيب

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء ٣٤] .

فالمرأة الصالحة القانتة ــ المطيعة ــ هي التي تحفظ غيبة زوجها ، كما تحفظ حضوره فتصون بذلك عرضَه وشرفه وسمعته ، فلا تظهر مفاتنها إلّا له ، وتقرُّ في بيتها ، وإن خرجت منه فهي تعطي للطريق حقه ، من حجاب مادي ومعنوي ، يسترها وحشمتها ووقارها ، وغض بصرها وصوتها ، فلا تقول إلّا قولاً معروفاً ، لا خضوع فيه ولا تكسرُّ ... لا تخوض في الأسواق ، ولا تخرج إلّا حين الضرورة .

كما أن المرأة العفيفة تُرضي دافع حب الجمال عندها والزينة بالتجملّ والتزيُّن لزوجها ، بحيث تبدو أمامه بأجمل مظهر شكلاً ورائحة وصوتاً وسلوكاً وصورة ، فتسرُّه إذا نظر ... وكما قال ابن عباس : « إني اتزيّن لامرأتي كما تتزينّ لي » .

ولعل صفة التواضع والرقة والأنوثة ولين الجانب من أكمل ما يزيّن خلق المرأة الصالحة ، حيث يجعل من تواضعها إنسانة من أحاسن الناس أخلاقاً ، الموطئين أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون

ولا يخفى ما لأنوثة المرأة ورقتها من تأثير على قلب الرجل ، إذ يجعله يجد فيها النصف الآخر المكمّل والمجلّي لرجولته ، ولا يفهم من التواضع والرقة أن

تمتهيني نفسك امتهاناً يزهّد بك زوجك أو يحط من كرامتك ... فهذا أمر وذلك شأن آخر لا يخفى على كثير من النساء الذكيات والفطنات .

وبما أن دور المرأة في البيت دور الملاذ الذي يلوذ به الزوج والأولاد بعد عناء النهار ، والسكن الذي ينشدون العودة إلى أفيائه ، فلابُدَّ لها من التحلي بخلق الصبر وسعة الصدر والحلم والحكمة في معالجة الأمور ، لا سيّما أن كثيراً من المشكلات الزوجية الأسَريه لا تُحَلُّ بالتضجر والتسرع والغضب ، بل بمواجهتها بسعة صدر وصبر وترو وتبصر وتحلُّم : « فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلُّم » والمرأة الصالحة تكون القدوة الصالحة في أمور كهذه .

ولابُدَّ أن نؤكد مسئولية المرأة الصالحة في حمل أمانة رعاية بيت الزوجية ، طاعة لأمر الرسول الكريم ﷺ : « المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها » متفق عليه .

ومسئولية الرعاية هذه تشمل كافة شئونه المادية والمعنوية ، الفردية والاجتماعية ، العقلية والعاطفية ، الزوجية والوالدية ، فتعطي كل ذي حق حقه من زوج وأولاد ، ورعاية مال وبيت وشرف وتربية وأخلاق .

بقي أن نذكر ونذّكر ببعض الصفات الخيِّرة التي لابد من أن تكمل بها المرأة الصالحة شخصيتها كالصدق والصراحة والدماثة والكياسة ، ومحاولة تعويد نفسها وزوجها أن يثق كل منهما بالآخر ، وأن يحترم كل منهما الآخر ، لكي تُبقي على حاجز الاحترام والثقة المتبادلة بينهما وتزيد من بنائه وتمتينه بالفعل والقول ، حتى يمكنها أن تُحقق في بيتها السكن النفسي والاجتماعي المنشود ، وتكون أشبه بشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعهامي السماء تُؤتي أُكُلها في كل حين بإذن ربها ... وارفة الظلال ، دائمة الخضرة والثمار ، متواصلة العطاء ما بقيت في هذه الدار .

***

طاعة الزوج

طاعة الزوجة لزوجها حقّ له تستلزمه مكانته في الأسرة بصفته قيّماً لها ، فمن كانت له القوامة حقّت له الطاعة ، فالطاعة إذاً هي الوجه المقابل للقوامة وإذا انتفت أصبحت القوامة مهمة اسمية جوفاء لا تطبيق لها في واقع الحياة الزوجية .

وليست طاعة المرأة لزوجها إلّا فرعاً من طاعة أولي الأمر التي فرضها الله على عباده المؤمنين ، ففي سورة النساء نجد قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [آية ٥٩] فالزوج يُعتبر ولي أمر الزوجة وبالتالي تجب طاعته ضمن حدود دائرة طاعة الله ورسوله ﷺ ، ومن تشقّ عصا الطاعة على زوجها فقد عصت ربّها ... وقد أكد الله تعالى هذه الصفة في الزوجة الصالحة في سياق آية القوامة ، فبعد إقرار مبدأ قوامة الرجل وبيان مسوغاتها وصف الله جلّ وعلا النساء الصالحات وصفاً خبرياً بقوله :

﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء ٣٤]

ونفهم من تعريف « الصالحات » أنّهن المتحققات بكمال صفة الصلاح نظراً إلى أن أداة التعريف هنا تدلُّ على الكمال باعتبار استغراق هذه الأداة لكل عناصر الصلاح كما يقول علماء البلاغة .

أما وصف الصالحات بأنّهن « قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » فهو يدلُّ على أن المرأة الصالحة لا يوجد فيها نقيض هذا الوصف .

وهذا أبلغ من أمرهن بالطاعة وحفظ الغيب ونهيهن عن المعصية وخيانة

الأمانة ... وهو أسلوب تربوي رباني حكيم يعتمد على استخدام التوجيه غير المباشر بالتكليف مما يتلاءم والنفس البشرية . كما يدلّ على أن هاتين الصفتين هما بمثابة نتيجة لازمة لصلاحهن وانصياعهن لقوامة أزواجهن وحمايتهم ولا تتجلى أهمية هاتين الصفتين إلاّ بتحليل معناهما : « فالقانتات » مأخوذة من القنوت ، والقنوت في كتب اللغة يعني الطاعة والقانت : المطيع ، فالقانتات : المطيعات والسياق هنا يُشير إلى طاعتهن أزواجهن وطاعتهن الله بقيامهن بما يتوجب عليهن من حقوق الله وحقوق أزواجهن ... وهذا ما ذكره المفسرون القدماء وقد أشار الإمام الرازي في تفسيره إلى هذا المعنى بطريقة استنباطية بقوله :

« واعلم أنَّ المرأة لا تكون صالحةً إلاّ إذا كانت مطيعة لزوجها ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فالصالحات قانتات ﴾ والألف واللام في الجمع يفيد الاستغراق ، فهذا يقتضي أن كل امرأة تكون صالحة فهي لابدَّ وأن تكون قانتة مطيعة » .

وأما قوله تعالى بوصف القانتات « المطيعات » بأنهنّ أيضاً « حافظات للغيب بما حفظ الله » فهو معنى آخر مكمل لصفة الطاعة مبيناً دوافعها وأسبابها ... متضمناً بنودها .

وقد ذهب معظم كبار المفسرين إلى عدة معانٍ مستخلصة من هذهِ الآية ، كلها تدور حول ما تقدم فالحفظ للغيب يشمل كل ما على المرأة حفظه في غيبة زوجها فيما استؤمنت عليه من ماديات ومعنويات ... بما في ذلك أمور تتعلق بنفسها وأنوثتها وعرضها ... وأخرى تتعلق بزوجها من أسرار وأهل وولد وبنت ومال ، والغيب يشمل أيضاً كلّ ما غاب عن علم الزوج واستتر عنه في حضوره وغيابه ومن تحفظ ما استؤمنت عليه في غياب زوجها تكون قد استحقت لقب الصالحة القانتة « المطيعة » يحدوها في ذلك أمور مختلفات نستشفها من قوله تعالى : ﴿ بما حفظ الله ﴾ وقد أشار المفسرون إلى هذه المعاني وفسروها بمعانٍ عدة يظهر منها بالتدبر ما يلي :

١ ــ ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي بمقابل ما حفظ الله لهن من حقوق عند أزواجهن

وغيرهم ومما حفظ لهنّ من حقوق عند الأزواج ... حسن العشرة والقيام والقوامة على الوجه الصحيح وتأدية النفقة وغيرها ... وهذا يجري مجرى هذا بذاك ، أي أنّ مطالبة الزوجة بالطاعة وبالحفظ بالغيب هو مقابلٌ بما حفظ الله لهما بأحكامه الشرعية في المجتمع .

٢ — ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي بحدود ما أمر الله بحفظه من أشياء ... وتدخل فيها طاعة الزوج وتأدية حقوقه لأن الله أمر بذلك .

وكما أوصى الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم معشر الرجال بحسن عشرة النساء في مناسبات مختلفات استناداً إلى المبدأ الشرعي الذي دل عليه قول الله عز وجل في سورة النساء : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ [آية ١٩] فقد أكد على صفة الطاعة وطلب رضى الزوج من قبل النساء ، والأحاديث الواردة بهذا الشأن كثيرة منها ما يلي : قوله ﷺ : « إذا صلّت المرأة خمسها وصامت شهرها ، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت الجنة » .

بل إن طاعة المرأة لزوجها وحسن تقبلها له يرفع أجرها إلى مرتبة المجاهدين في سبيل الله ، وقد أخرج البزار والطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنه « أن امرأة قالت : يارسول الله أنا وافدة النساء إليك ! ثم ذكرت ما للرجال من الجهاد وغيره من الأجر والغنيمة . ثم قالت : فما لنا من ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : أبلغي من لقيت من النساء أنّ طاعة الزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله » .

وطاعة المرأة لزوجها ينطبق عليها ما ينطبق على طاعة أولي الأمر التي حددها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « إنما الطاعة في المعروف » وبقوله : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » فطاعة المرأة لزوجها لا تعني أن تكون طاعة عمياء تُلغى فيها شخصية المرأة لتكون أشبه بآلةٍ تُنفذ دون تفكير أو رويّة بل لابد أن تكون طاعة متبصرة رشيدة ، تعي فيها المرأة ما عليها القيام به وتدرك أن سلوكها هذا فيه مصلحتها ومصلحة أسرتها بكافة أفرادها ... ومصلحة مجتمعها ، مع ضرورة الإشارة إلى أنّ باب الشورى والمراجعة في بعض الأمور

في الأسرة أمر مباح ابتداءً ، وقد روت كتب السيرة: أن نساء النبي ﷺ كنَّ يراجعنه « يناقشن أوامره » وتهجره الواحدة منهن اليوم إلى الليل أي طول النهار .

وتطلب الطاعة من الزوجة في مسيرة الحياة الزوجية في أمور عدة أهمها : عدم عصيان الزوج في أدائه حقه الغريزي الذي شرعه الله له ... وهذا الأمر بالذات بالإضافة إلى أنه حقّ خاص للزوج ابتداء فقد قال تعالى بشأنه :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

(البقرة ٢٢٣) :. فإن تقاعس الزوجة أو امتناعها عن أدائه يُعتبر من كبائر الذنوب التي ترتكبها الزوجة في حق زوجها ، وقد أكّد الرسول الكريم على ذلك بأحاديث مختلفة منها :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » متفق عليه . وفي رواية لهما : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح » وفي رواية أخرى قال ﷺ : « والذي نفسي بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلاّ كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها » ومراعاة لهذا الحق فلا يجوز للمرأة أن تصوم صيام تطوع وزوجها شاهد إلاّ بإذنه . فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن الرسول ﷺ : أنه قال : « لا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلاّ باذنه » أخرجه البخاري .

ومن هذه الأمور عدم عصيان الزوج في إدخال بيته من يكره أو يمنع من دخوله كائناً من كان ، ففي الحديث قوله ﷺ عن أبي هريرة : « لا يحلّ للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلاّ بإذنه ولا تأذن في بيته إلاّ باذنه » متفق عليه .

وكذلك الأمر إذا منعها من الخروج فعليها أن تمتثل وتقرّ في بيتها ... فعن أنس رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قوله : « أيما امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها كانت في سخط الله تعالى حتى ترجع إلى بيتها أو يرضى عنها زوجها » .

ومن طاعة الزوج التي يشملها حفظ الغيب محافظة المرأة على نفسها وعلى بيت زوجها وولده وماله وأن ترعى ذلك حق الرعاية فتعف نفسها عن كلّ ما حرّم الله وكره الزوج ، ولا تتصرف في مال زوجها من غير إذنه ، ولا تُنشيء أولادها على أمرٍ لا يرضاه الله ولا زوجها وقد وصف الرسول الكريم المرأة الصالحة بقوله : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحةٍ إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرّته ، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله » .

ومن بنود الطاعة أيضاً متابعة الزوجة بعلها في المسكن طالما كان مستوفياً الشروط الشرعية ومكان الزوج قائماً بحقوقها كاملة ، وإلاّ فما معنى « الزوجية » إذا كان كلٌّ من شطريها في طرف ؟ وأين ظلال السكن والمودة والرحمة ؟ ومن فعلت خلاف ذلك تُعتبر ناشزة عاصية يحق للزوج إلزامها بالعودة إلى المتابعة بالمسكن بسلطة القضاء الشرعي .

ويتجلى حق الزوج في الطاعة من قبل الزوجة في أبرز صوره في مجال تأديبها في حال نشوزها وفق المراحل المتدرجة التي أمر بها الشارع الحكيم : الوعظ فالهجر في المضجع فالضرب غير المبرح المأذون به شرعاً وفق شروط محددة حتى تفيء إلى أمر الله وترجع إلى الطاعة التي تعتبر سياجاً يحميها من أي تمادّ من قبل الزوج أو طغيان بغير حق

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء ٣٤]

وهذا الأمر في آية القوامة يحجّم دور الزوج ضمن الحدود التي رسمها الشارع ويمنعه من استخدام ما خوّله الله من سلطة في ردعها عن عصيانه في غير وجه حق .

والمرأة الصالحة القانتة مطيعة بالفطرة ، ومطيعة بالفكرة ، أما طاعتها بالفطرة فتعود إلى ما جلبت عليه من صفات وغرائز تتناسب مع المهمات التي خُلقت من أجلها ... وأما طاعتها بالفكرة فترجع إلى أن المرأة العاقلة الصالحة تدرك

ما لها وما عليها وترى أنّ من واجب الرعية طاعة راعيها لما في ذلك من المصلحة العامة ... لا سيّما وأنّ جو السكن الأسرى النفسي المفروض توافره في الأسرة المسلمة لا يمكن تحقيقه إلّا إذا تحققت القوامة الرشيدة من قبل الزوج ، والطاعة المتبصرة الحميدة من قبل الزوجة مع ضرورة الإشارة هنا إلى أن طاعة الزوجة سلباً أو إيجاباً تسري إلى أولادها بالقدوة والتقليد ...

ويكفي المرأة عظة هذا الحديث عن عبد الله بن أبي أوفي رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربّها وهي على قتب لم تمنعه » رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

هذه الوصايا بطاعة الزوجة لزوجها تجعل البيت المسلم مملكة من السعادة والهناء والفرح والسرور والاستقرار النفسي والسكن السعيد وبغير الالتزام من الطرفين بهذا المنهج القويم يتحول البيت إلى قطعة من الجحيم وحقل من الألغام التي تفجر أركانه وتقوّض بنيانه .

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

[طه ١٢٣ — ١٢٧]

* * *

